ميخائيل نعيمه

المراحل

سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها

مؤسسة نوفل ش.م.م

بيروت - لبنان

المراحل

الطبعة التاسعة
١٩٨٩

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل، شارع المعماري
تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤، تلكس ٢٣٢١٠ نوفل
ص.ب ١١/٢١٦١، بيروت، لبنان

ثلاثة وجوه

وجوه البشر . وجوه البشر ! كيفما انقلبت أراها — عن يميني وعن يساري . وأمامي وخلفي . وفوق رأسي وتحت قدميّ . حيثما أكون تكون .

أدير طرفي في زوايا خلوتي فأراها في كلّ زاوية . وأطلّ من نافذتي فأبصرها مقبلة مدبرة . وأسير في سبيلي فتسير معي كظلّي . وأطرق أبواب رزقي فألتقيها على كلّ عتبة . وأفتح كتابي فتثب عليّ من بين السطور . وألقي برأسي إلى وسادتي فأجدها قد سبقتني إلى فراشي .

وجوه ! وجوه ! وجوه !

بيضاء وسوداء . حمراء وصفراء . خشنة وناعمة . مظلومة وظالمة . مشرقة وعابسة . راجية ويائسة . ضاحكة وباكية . شاكرة وشاكية . هادئة وهائجة . كاسدة ورائجة . غالبة ومغلوبة . صالبة ومصلوبة . سليمة وعليلة . قبيحة وجميلة.

وجوه ! وجوه ! وجوه !

وليس بينها واحد تستقرّ عليه العين فتأنس وتطمئن . جميلها لا يظلّ جميلاً . وقبيحها لا يدوم قبيحاً . ضاحكها لا يلبث أن يعبس أو يبكي . وباكيها لا يلبث أن يُشرق أو يضحك . فهي تتقلّب في كلّ دقيقة بعدد ثوانيها . وفي كلّ ساعة بعدد دقائقها . متلوّنة بألوان ما يتموّج تحتها من شهوات الأرض ، وأهواء الجسد ، ومخاوف اللحم والدم ، وأوهام الزمان والمكان .

وجوه ! وجوه ! وجوه !

وجوه أصحابي ووجوه أعدائي . وجوه أعرفها ووجوه لا أعرفها . في كلّ وجه أبصر ملامح من وجهي . لأنّي ، أنا كذلك ، ألعوبة الشهوات ، وهدف الأهواء ، وفريسة المخاوف ، وعبد الزمان والمكان .

فويل عينيّ من وجهي ، كيفما دارتا لا تقعان إلاّ عليه . بل ويل وجهي من عينيّ المقنّعتين بالتّراب ، فلا تبصران غير ألوان التّراب . وليت لي أن أستعيض عنهما بالعين الّتي تخترق ستر الزمان وحُجُب المكان . العين الّتي لمحت بها أمس وجوهاً بشريّة ثلاثة فتقلّصت أمامها خيالات كلّ وجوه البشر !

وجه بوذا

غوتاما ! غوتاما ! يا قاهر الموت قبل أن يدركه الموت . وقاتل الشهوات قويّها وضعيفها . ونابذ اللذات أسماها وأدناها. القائل للزمان أنا أنت . وللمكان أنا أفسح منك وأبقى .

غوتاما ! غوتاما ! ما أجمل وجهك وأصفاه . وما أقربه وأقصاه ! لا دمعة فيه ولا ابتسامة . ولا اغتباط ولا ندامة . ولا لجاجة ولا سآمة . لا جعدة وجع ولا مسحة طمع ولا انكماش جزع . لا حلاوة أمل ولا مرارة فشل . لا ادّعاء

---

١ كان من الأصح أن يقال (البوذا) لأن معنى الكلمة (المستنير) أو (المهتدي) فهي نعت لا اسم علم . كما تقـول (المسيح) ومعناها (الممسوح) . وكما أن كلمة (مسيح) أطلقت على يسوع الناصري فلزمته كاسم ، هكذا لزمت كلمة (بوذا) مؤسس الديانة البوذية دون كل من سبقه أو جاء بعده . فغلب استعمالها كاسم . أما اسم بوذا الأصلي فهو (سدارتا) واسم أسرته (غوتاما) . وكانت من أعرق أسر الهند نسباً وأوفرها مادة وسلطة .

عاش بوذا في القرن السادس قبل المسيح وقضى أول شبابه باللهو والطرب . وفي التاسعة والعشرين من عمره اقترن بنسيبة من نسيباته ، وبعد ولادة بكرهما بقليل قطع بوذا كل علاقاته العائلية واعتزل البشر وانفرد بنفسه مدة منقطعاً للتأمل ، ثم عاد إلى العالم ليهدي الناس إلى (الطريق) التي اهتدى إليها . وظل يبشر حتى آخر حياته ، وقد عاش ثمانين عاماً .

ولا خُيَلاء . لا دعة ولا ضعة . لا شوق ولا حنين. لاشك ولا يقين . لا حب ولا بغض . لا حاجة انقضت ولا حاجة لم تنقض . لا شهوة تموت ولا شهوة تولد .

غوتاما بوذا . غوتاما بوذا ! ألا نزعت الغشاوة عن عينيّ لأبصر الحكمة في عينيك ؟ ألا أعرتني عينيك لأرى وأدرك سر هذه الطّمأنينة السرمدية المرتسمة على وجهك ؟ بماذا عساني أشبّهها وقطُّ لم أرَ ، لا في يقظتي ولا في منامي ، ما يشبهها ؟

أأشبّهها بصفاء السماء في أيار ؟ والسماء إن صفت شهراً لا بدّ أن تعتكر يوماً . أما طمأنينتك فلا تمر بها سحابة . ولا تنفخ فيها ريح .

أم أشبّهها بسكينة البحر بعد العاصفة ؟ والبحر لا يودّع عاصفة حتى يستقبل أخرى . أما سكينتك فمن عالم لا تولول فيه عواصف ، ولا تلمع بروق ، ولا تقصف رعود .

غوتاما بوذا . غوتاما بوذا ! أنا أحلم بالحرّيّة ، ولساني يتلفظ باسمها القُدُّوس ، شأن كل ألسنة العبيد . أما وجهها الطاهر فلم يشرق عليّ بعد . أكاد الآن أبصرها في وجهك الساخر بكل قيد من قيود المادة . نعم . أكاد . . . أكاد . . . أكاد . . . لا غير . فما أغرب وجهك وجهاً — من المادة وكأنّه ليس منها . أقترب منه فيقصو عني . وأقصو عنه فيدنو

مني . وتظل المسافة بيني وبينه كالمسافة بين أوهام الأرض وحقيقة النرفانا[1] .

يا واجد « الطريق الوسطى » في مفازة تشعبت طرقها حتى كأنها شبكة والناس فيها أسماك تطلب مهرباً فلا تجده .

أيها المستنير والمهتدي ، ألا نوّرتني وهديتني لأسلك في طريقك ذات الشّعاب الثماني : الإيمان الصالح . والعزم الصالح . والكلام الصالح . والعمل الصالح . والمعيشة الصالحة . والجهد الصالح . والفكر الصالح . والتأمّل الباطنيّ الصالح .

أنظر إلى شفتيك فأكاد أراهما تتحركان ، وأكاد أسمعك تكرز على الرهبان الخمسة عن « حقيقة » العذاب هكذا :

« الولادة عذاب . والشيخوخة عذاب . والموت عذاب . عذاب أن يرتبط الإنسان بمن لا يحب . وعذاب أن ينفصل عمن يحب . عذاب أن لا ينال الإنسان ما يشتهي . وعذاب أن ينال ما يشتهي . »

---

١ لقد اختلف باحثو الفرنجة في فهم النرفانا وتحديدها . فذهب أكثرهم إلى أنها حالة اضمحلال أو عدم تام إذا صح أن ندعو العدم (حالة) . غير أني عثرت على تحديد لادموند هومز رأيته أقرب إلى الحقيقة من سواه وهو كما يلي : « النرفانا حالة من حالات الكمال الروحي الأقصى التي تدركها النفس بنموها الطبيعي واتساعها وتمددها إلى حد أن تنفصل عن كل ما هو فردي وغير دائم ومتقلب فتندغم بالنفس العالمية التي ليس من حقيقة أبدية سواها . »

الحياة الأرضية عذاب لأنها سلسلة شهوات وأهواء ومطامع تؤدي بصاحبها من ولادة إلى موت . ومن موت إلى ولادة . فكل من تعلّق بالأرض ظلّت الأرض تجذبه إليها جيلاً بعد جيل ، وظلّ في « دردور الولادة » إلى أن يقطع أواصره الأرضية ، وتفلت ذاته من أوهامها لتندغم « بالذات العالمية » حيث تحظى بالنرفانا . فعلى من أحب التخلص من أوهام المادة أن يقتل كل شهوة ، وكل لذة ، وكل رغبة ما خلا رغبة الوصول إلى النرفانا .

أكاد أسمعك تقول : « كل ما هو مادة ، وكل ما ندركه بحواسنا الخمس ؛ كل ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ؛ كل ما هو خارج عنّا وما هو داخلنا ، قريباً كان أو بعيداً ، رفيعاً أو خفيضاً ؛ كل ذلكم أيها الرهبان ليس « بالذات » (ليس ما ندعوه « أنا ») . . . من أدرك هذا ، أيها الرهبان ، وكان حكيماً وواعياً لكلمة الحقّ تحوّل عن المحسوسات . وإذ يتحول عنها ينعتق من ربقة الشهوات . وبانعتاقه من ربقة الشهوات ينال الخلاص ، ويشعر بأنّه قد خلص . عند ذاك تنتهي سلسلة الولادات . وتمّ القداسة . وينقضي الواجب . وإذ ذاك يعرف المنعتق أنّه لن يعود إلى العالم .

غوتاما بوذا ! يا ساكن النرفانا ! ألا بيّنت لي ، أنا المسمّر بالأرض ، والحامل من همومها ثقل بحورها وجبالها ؛ ألا

بيّنت لي كيف أقف على العتبة الفاصلة بين الوهم والحقيقة ، كما وقفت أنت على عتبة مخدع زوجك وأمّ بكرك ، وقد نامت تحت لحاف من الأزهار ، وبكرك وبكرها ملتصق بصدرها . ودون أن تدنو منهما قلت : « هو ذا رباط جديد قوي يجب أن أنفكّ منه كذلك . » وأدرت وجهك إلى الليل ، ورحت هائماً في الآجام تطلب الطريق إلى النرفانا .

غوتاما بوذا ! أيها الفقير بغناه ، والغني بفقره ! ألا علمتني أن أحمل قصعتي وأدور مستعطياً طعامي من الناس . وإذا أنّبني الناس قائلين : « عار عليك أن تأكل ولا تتعب ، بينا نتعب نحن لنأكل » أجبتهم بما أجبت أنت ذلك الملاّك الغني يوم وقفت على طرف حقله وقصعتك في يدك فقال لك :

« علامك تأتيني مستعطياً ؟ ها أنا أحرث وأزرع لأحصل على قوتي . فعليك أن تفعل ما أفعل . »

فأجبته : « وأنا مثلك ، أيها البرهمي ، أحرث وأزرع . ولأني حرثت وزرعت أحصد وآكل . »

وإذ أدهشه جوابك لأنّه قطّ لم يرَك حارثاً أو زارعاً في حقل من تراب أزلتَ دهشته بقولك :

« إن الحقل الذي أحرثه بذاره الإيمان . وريّه وسماده مقاتلة الشهوات. وأشواكه التي أقتلعها هي الشغف بالوجود . . . الحصاد الذي أحصده هو إكسير النرفانا . من يحصدْ هذا

الحصاد يُتلفْ كلّ أشواك العذاب . »

غوتاما بوذا ! يا من تغلّب على الفناء بتركه كلّ فانٍ . ألا نوّرت بصيرتي لأدرك مثلما أدركت أن كلّ مركّب مصيره الانحلال . وكل ما ينحلّ لايدوم . وكل ما لا يدوم ليس حقيقة؟

أنا لست جسمي لأنّه سائر كل لحظة إلى الانحلال . وبانحلاله ستنحلّ وتفنى كل حاجاته وشهواته وملذاته وأوجاعه. ولا يبقى غير حقيقتي – غير « ذاتي » – غير « أنا » التي هي من « الذات العالمية » الكائنة في كل شيء وكل شيء فيها والتي لا تنقص ولا تزيد . ولا تتحول ولا تتبدل . فيها تلتقي الأزليّة والأبدية . ومنها تنبثق كل ذات. وإليها معاد كل ذات.

فالحكيم الحكيم من سهل لذاته طريق العودة بإعتاقها من روابط الوجود . إذ ان من مات وفيه عطش إلى الوجود سيعود حتماً إلى الوجود . فالأرض تجذب محبيها إليها ، حتّى من وراء القبر ، كما يجذب المغناطيس الحديد حتّى من اللجّة .

إيه يا قاهر الموت قبل أن يدركه الموت . يا قاتل الشهوات واللذات . يا واجد خط الاستواء بين قطبي الحياة البشرية – بين التقشف البالغ حد الانتحار ، والاستسلام إلى الأهواء المؤدي إلى الانتحار أيضاً .

إيه يا ساكن النرفانا ! علّمني كيف أسكت سكوتك في حضرة ما يُدرَك بالتأمّل ، ولا يُفسَّر بلغة البشر . وكيف

أبلجم لساني في حضرة من لا شأن لهم من الكلام معي عمّا لا يقاس ولا يُحَدّ إلاّ إيقاعي في التجربة والشماتة بجهلي . وهم بكلامهم يفضحون جهلهم من حيث لا يعلمون .

واجعلني ، كلما نظرتُ إلى وجهك الساحر بطمأنينته العلوية ، الرهيب بسموه عن الأرض وبُعده عن متاعب الجسد — اجعلني أخجل من وجهي وكل ما ارتسم عليه من شهوات الوهم ، وخُيَلاء الجهل ، ومطامع الأرض ، وآمال اليوم والغد ، ومرارة الذكرى ، وأوجاع اللحم والدم ، وخوف الانحلال ، والتعطّش إلى الوجود .

ألا برّد لواعج روحي ولو بقطرة من رحيق النرفانا !

وجه لاوتسو[1]

من يوم عرفتُ لاوتسو أصبحتُ أجلّ كلّ المجاذيب .

إنّ الذين نعدّهم « مجاذيب » كالذين نعدّهم عقلاء ، طبقات طبقات . وطبقاتهم تتنوّع بتنوّع القوّة التي تجذبهم إليها . فمن مجذوب بمال أضاعه أو بمال يطمع فيه . ومن مجذوب بآلة اخترعها أو بآلة يحاول اختراعها . ومن مجذوب بحبّ أو بكره . ومن مجذوب بفكرة يستوعبها وجدانه ويقصّر دون تصويرها لسانه .

يختلف المجاذيب باختلاف جواذبهم . إلا أن مصاباً واحداً يجمعهم . وهو أنهم كلما لجأوا إلى لغة بشرية للإفصاح عما يجذبهم وجدوا أن ما يقصدون تأديته بهذه الكلمة أو بتلك هو غير ما يفهمه الناس . فهم أبداً غرباء في الأرض لأنهم غير

---

١ خلاصة ما حفظه التاريخ عن حياة هذا المعلم الغريب أنه ولد في القرن السادس قبل المسيح في ولاية (تشو) من بلاد الصين . وأنه صرف مدة طويلة في خدمة الحكومة هناك إلى أن تنبأ للولاية بالخراب فاضطر أن يغادرها . وإذ بلغ الحدود أوقفه الخفير قائلا : « إذا كنت عازماً على مغادرتنا أفلا كتبت لنا كتاباً نذكرك به ! » إذ ذاك نظم لاوتسو بضعة مقاطع شعرية ، أودعها خلاصة اختباراته الروحية ، وسلم الجندي الكتاب ومضى في سبيله . وإلى اليوم لا يدري أحد إلى أين مضى .

مفهومين . ولولا ذلك لما كانوا « مجاذيب » !

كم يلذّ لي أن أطبق عينيّ الترابيّتين عن كل وجوه البشر . وأن أهرب بفكري إلى خلوة من الزمان الغابر – الحاضر حيث تستقرّ عيني التي ليست من تراب على وجه مجذوب المجاذيب ، ملاك السلام ، رسول الوداعة ، أقنوم الفضيلة ، مثال القناعة ، بوق « الطاو » أو الروح الذي منه كل روح – لاوتسو !

واخجَلي من وجهي تجاه وجهك يا لاوتسو !

واخجَلي من بسمة تطفو على دمعة . ودمعة في قلبها شهوة . وشهوة في شهدها حرقة . وحرقة في نارها دمعة !

واخجَلي من فرحي ومن ترحي . من أسرّة تشرق لمدح الناس ، وأسرّة تتكمش لقدحهم .

من عينين تبرقان بفوز صغير ، وعينين تظلمان بفشل أصغر .

من حاجبين ينبسطان لحاجة انقضت ، وحاجبين يتقطبان لحاجة لم تنقضِ .

من شفتين تلتهبان بقبلات الحبيب ، وشفتين تذبلان عطشاً إلى شفتيه .

من خدّ مصعّر ، وجبين معفّر .

من لسان يجرش اليوم ما جرشه أمس ، وغداً ما جرشه اليوم . أما خلاصة جرشه فنخالة في نخالة .

واخجلي من كآبتي تجاه كآبتك يا لاوتسو !

كآبتي كآبة الظمآن يشرب ماء البحر . وكآبتك كآبة النّهلان من المنهل الحيّ يدلّ العطاشى إليه فيسمعون ولا يفقهون . وينظرون ولا يبصرون .

لقد جرعتْ روحك من ينبوع الحياة الحقّة حتّى الفيضان . غير أنّها حين شاءت مشاطرة الناس أفراحها السماوية خانتها الحروف والكلمات والمقاطع . ألا بئست الحروف والكلمات والمقاطع آنية يُصَبّ فيها رحيق الإلهام – إلهامك بئست اللغة البشرية المحدودة أداة للإفصاح عمن لا حدود له ولا أقيسة . تبّاً لها كم سببت لك من حرقة . وسقياً لها لأنها حرقتني بحرقتك فانتصبتْ مواعظك أمامي ألسنةً من نار لا حروفاً من مداد أسود على ورق أبيض . وفهمت شكواك حيث قلت :

« كلماتي سهلة الفهم والممارسة . ويلوح لي مع ذلك أنْ ليس في العالم كله من يفهمها أو يعمل بها .

« لكلّ كلمة سلف (فكرة سابقة) . ولكل عمل سيّد (نيّة سابقة) . وكما أن الفكر والنيّات قلّما يفهمها الناس هكذا أنا لست مفهوماً من الناس .

« ليس يفهمني من الناس إلا القليل . لذلك كنت حقيقاً بالإكرام . لأن الحكيم يلبس المسوح ويستر جواهره عن عيون الناس . »

الحكيم يبتعد عن البهرجة في اللباس والكلام . والناس يحبّون البهرجة . وأنت حكيم — وأيّ حكيم — يا لاوتسو . لذلك لم يفهمك الناس .

الحكيم يُلبس حكمته ثوباً من دعة الأرض التي تولّد كلّ شيء بهدوء وسكينة . والناس لا يسمعون صوت السكينة المولّدة . ويسمعون قوقأة الدجاجة إن هي وضعت بيضة . وأنت حكيم — وأيّ حكيم — يا لاوتسو . لذلك لم يسمع الناس صوتك .

حبذا حرقتك — حرقة المبصر بين العميان ، والمجذوب بين العقلاء — تلك الحرقة التي لولاها لما قرأتُ أفجع وأعذب شكوى لفظتها روح إنسان . هي شكواك غربتك عن الناس وأنت بينهم :

« الناس يفرحون ويمرحون . في الأعياد يولمون الولائم . في الربيع يتسابقون إلى مجالس الطرب . إلاّيَ — أنا وحدي هادىء كمن لم تأته بعد بشارة العيد أو الربيع . أنا كالطفل لم يتعلم الابتسام . أنا منسيّ ، شريدٌ ، تائهٌ ، لا مأوى له .

« الناس نشيطون وأذكياء ، إلاّيَ — أنا وحدي بليد ومضطرب .

«آه ما أوسع معرفة الطاو ! أنا كبحّار تتقاذفه الأمواج في عرض اليمّ ، بعيداً عن مرفإ يلقي فيه مرساته .

« الناس يأتون بنفع ، إلاّيَ – أنا وحدي معوجّ الخطى .
« أنا نقيض كل الناس . لكنما ضالتي التي أنشدها هي القوت من أمّنا الطاو ! »

يا لها كآبة مبطنة بنور – كآبة من لا يضحك مع الضاحكين لأن أفراحه من عالم الروح وأفراحهم من عالم المادة !

يا لها خيبة مكللة بالظفر – خيبة من أدار ظهره لكلّ مطامع البشر ، ووجهه إلى المصدر الذي لا مطمع بعده !

يا لها وحشة محفوفة بالطمأنينة – وحشة من أنكر ذاته الترابية فأنكره الناس . واهتدى إلى الذات السماوية فضمته إليها !

يا لها فاقة مثقلة بالخيرات – فاقة من أطبق عينيه عن حطام الأرض ليحظى بقوت من أمه الطاو !

ألا فليبتهج قلب كلّ أمّ . فالطاو – جاذب لاوتسو – أمّ . لكنها أم ولا كالأمّهات . فهي أبداً حبلى ، وأبداً تولـّد دون أقلّ ما عناء أو مشقـّة . لا بعل لها ولا والد ولا والدة . منها الحياة وإليها كل حياة . إلاّ أنها لا تُفَسَّر بالكلام ، ولا تُدرَك بالبرهان . لأن ما يفسَّر بالكلام ويدرَك بالبرهان محدود . أمّا هذه الروح التي هي أم كلّ روح فكيف تُحَدّ ؟

كيف تُحَدّ هذه الروح التي « تحيط بكل شيء » ولا يحيط

بها شيء . التي « قبل أن تكون السماء والأرض كائنت . هي غير هيولية . أبداً هادئة ، وأبداً وحدها . وأبداً هي هي لا تتغير . تعمل في كل شيء ولا عقبة في سبيلها . لذلك هي أمّ الكون » !

لاوتسو لا يعرف جوهرها . وعندما يضطر إلى تسميتها يسميها « الطاو » أو « العظيم » !

« العظيم لا يدرَك . والذي لا يدرَك فهو القصيّ . والقصيّ أبداً يدنو . . .

« الإنسان من الطبيعة . والطبيعة من السماء . والسماء من الطاو . والطاو من الطاو . »

غريبة هي أمُّك وعجيبة يا لاوتسو !

هي أمّ كل المخلوقات . من رحمها الروح ومنها المادة . فيا له من سرّ لا يُفَسَّر . سرّ انبثاق الروح الخالدة ، والمادة البائدة من مصدر واحد . من أدرك ذلك السرّ كما أدركته أنت انفتح في وجهه باب ملكوت الروح . ولا يدخل ذلك الملكوت إلا من تجرد — مثلما تجردتَ — من كلّ شهوات الحس . لأن من يشتهي المحسوسات لا يفلت من قيود المادّة المحدودة . والمقيَّد بالمادّة أنّى له أن ينعم بالحرية الروحيّة ؟

إي . غريبة هي أمُّك وعجيبة يا لاوتسو ! أنت تجهل مصدرها ، إلاّ أنك تعرف أنها أم كلّ شيء . انّها تبدو لك

فراغاً ، لكنه فراغ لا نفاد لما فيه . إنّها كائنة وغير كائنة. لأن وجودها في عدم وجودها . إنّها غير موجودة ، لأنها لا تدرَك بالحسّ . وهي موجودة ، لأنها تُلمس بالروح :

« للدولاب ثلاثون شعاعاً . غير أنّه لا نفع منه كدولاب إلا إذا كان محوره فارغاً . فقيمة الدولاب في فراغ محوره (في ما ليس موجوداً) . الجرة تُصنع من الخزف . لكن قيمتها ليست في الخزف ، بل في مقدار ما يستوعبه فراغها . والغرفة تُصنع بقطع أبواب ونوافذ في جدرانها . إلاّ أن قيمتها ليست في الجدران والأبواب والنوافذ، بل في الفراغ (الفسحة) الذي بين جدرانها . »

لا قيمة للمحسوسات بحد ذاتها . إنما تُقاس قيمتها بما لا يُحَسّ فيها . فالأرض وما عليها ، والسماء وما فيها ، كل ذلك ليس « الطاو » وإن يكن منه . إنما « الطاو » الحياة التي لا تقع تحت حس ، والتي تجعل الشمس شمساً ، والشجرة شجرة ، والبعوضة بعوضة ، وما هي بالشمس ، ولا بالشجرة ، ولا بالبعوضة .

أنا لست جسمي ، وإن يكن كل ما يبصره الناس مني . بل أنا « الفراغ » أو الحياة التي تملأ هيكل عظامي ولحمي . « فالموجود » أو المحسوس مني ليس « أنا » ، وغير الموجود أو المحسوسِ مني هو « أنا » . فوجودي في عدم وجودي .

حقّاً إنّ أمّك غريبة وعجيبة يا لاوتسو !

« إنّها تملأ كلّ شيء. وإليها يرجع كلّ شيء في الوجود . فلا تخيّب أحداً . لها الفضل في كل شيء . غير أنها لا تطمع في لقب « فاضلة » . تغذّي بالمحبّة كلّ شيء . غير أنها لا تدّعي حقّ الملك في شيء. » فما أحبّها إليّ أمّاً لا تدّعي الملك حتّى في ملكها . ولا الفضيلة حتّى في فضلها . ولا السلطة حتّى في سلطانها . وكم للناس من خالق ما خلق إلا ليتلهى بخليقته ، فيهنأ بعذابها ، ويتمجد بذلها ، ويقوى بضعفها !

أمّك تلد لأن من طبيعتها الولادة . فلا تمنّن ولداً بقولها : « أنا ولدتك فمجّدني . وإن لم تمجدني وتعمل مشيئتي طرحتك في جهنّم » . لأن أمك تعلم أن لا نظام لكل مولود منها إلا نظامها . ولا مشيئة إلاّ مشيئتها . وليس لمولود أن يفلت من نظامها كما ليس لها أن تفلت من نظام نفسها . فهي لا تدين ولا تعاقب ولا تثيب . العاقل وغير العاقل من بنيها يحمل نظامه في نفسه . وكلاهما يسير به مدفوعاً . إنما غير العاقل لا يقاومه . أمّا العاقل فيحاول مقاومته بعقله ولذلك يشقى . ولن يتخلّص من الشقاء حتّى يدرك خطأه ويُقلع عن عناده ويقرّ بضعفه أمام قوة الطاو وبجهله تجاه الحكمة التي لا تُحَدّ .

إذ ذاك يفهم « العقلاء » قصدك يا لاوتسو من قولك : « مَن حاول تحسين شيء شوّهه . ومن سعى لامتلاك شيء

خسره . لذلك فالحكيم لا يشوّه الأشياء إذ لا يحاول تحسينها . ولا يخسر شيئاً لأنّه لا يطمع في امتلاك شيء . »

لأن كل ما ينبعث من الطاو حسن . وهو في الطاو والطاو فيه . فكيف لبشر أن « يزيد » في حسنه ؟ كيف لغصن في الشجرة أن يصلح الشجرة أو أن يمتلك فرعاً من فروعها ؟

إذا كان من فساد ، فالفساد ليس إلاّ في اعتقاد الناس أنهم فاسدون ، وأن في الكون ما هو معوجّ وفي قدرتهم تقويمه . ذلك هو أكبر أوهام الناس وأصل بلاياهم . ومتى تغلبوا عليه تغلبوا على الشر الناتج عنه . ومتى تغلبوا على الشرّ أصبحوا فوق الشرّ والخير . إذ لا خير بدون شر . وحينئذ يقتربون من الطاو الذي ليس خيراً ولا شرّاً !

آه لو يدرك المشترعون والفقهاء في الأرض ما بين نظام الطاو السرمدي وأنظمتهم الزمنية من الفرق مثلما أدركتَ ذلك يا لاوتسو حيث قلت :

« كلّما كثر التحديد والتحريم على الشعب ازداد الشعب فقراً . وكلّما وفرت أسلحته اضطربت حال المملكة . وكلّما ازداد دهاء واحتيالاً تعدّدت نكباته . وكلّما تعددت الشرائع والأوامر كثر اللصوص وقاطعو السبيل . »

المجد ، كل المجد ، لأمك يا لاوتسو ، وإن تكن لا تطلب مجداً . المجد لها لأنها أنطقتك بحِكَم بَلِيَ اللسان الذي نطق

بها، وهي لا تزال ألسنة من نور محمولة على أكف السنين.

فما أجمل وأوسع المحبة المصوّرة في قولك:

«الرجل الحكيم ليس لقلبه مقرّ محدود. فهو يجد قلبه في قلب كل إنسان. وهو يعامل الصالح بالصلاح. ويعامل الطالح بالصلاح أيضاً. لأن الـ «ته»[1] صلاح. هو يعامل الأمين بالأمانة. ويعامل من ليس أميناً بالأمانة أيضاً. لأنّ الـ «ته» أمانة... الرجل الحكيم يضمّ في قلبه كل القلوب. فيعطيه الناس أعينهم وآذانهم، ويعاملهم كما لو كانوا أبناء له.»

وما أسمى ضعتك وأنبل صبرك في قولك:

«الرجل الحكيم لا يباهي بحكمته ولا يُكثر من الكلام. تساوره المتاعب فلا يتذمر. يتعب ولا يملك ثمار أتعابه. ويعمل ولا يدّعي لنفسه فضلاً في عمله. ويبني ولا يسكن ما يبنيه. ولأنّه لا يسكن ما يبنيه يظلّ أبداً فيه... نسبة البهرجة، والاعتداد بالنفس، ومدح الذات إلى الطاو كنسبة البراز إلى الطعام. تلك مفروزات كريهة والطاو بعيد عنها.»

«من يعرف لا يتكلم. ومن يتكلم لا يعرف.»

---

1 معنى الـ (ته) حرفياً (الفضيلة) غير أن من طالع أقوال لاوتسو يدرك للحال أن لها معنى أوسع من ذلك بكثير. كما أن لكلمة الطاو — ومعناها (الطريق) — معاني لا يمكن حصرها في كلمة واحدة إلا إذا اخترنا كلمة «الله» لأنها غير محدودة.

«كلمات الحقّ كثيراً ما تكون مُرّة . والكلمات الحلوة كثيراً ما تكون كاذبة . الرجال الصالحون لا يخاصمون ولا يجادلون . أما الذين يخاصمون ويجادلون فليسوا بصالحين . العلماء كثيراً ما يكونون غير حكماء . والحكماء كثيراً ما يكونون غير علماء . الرجل الحكيم لا يخزن الخيرات لنفسه ، بل يعمل أبداً لأجل الغير . ولأنّه يعمل للغير يضاعف خيراته. »

وما أغنى قناعتك القائلة :

« لا خطيئة أكبر من الشهوة . ولا تعاسة أكبر من التذمر. ولا ملمّة أكبر من حب الاقتناء . لذلك كانت السعادة القصوى في القناعة . »

وما أبعد فكرك عن المتناهي وأقربه من اللامتناهي حيث تقول :

« اطلب الفكر المطلق (ذروة الفراغ) والرصانة (ينبوع الطمأنينة الروحية) . الأشياء كلّها في حالة الصيرورة تأتي وتعود . فالنبات لا يزهر إلا ليرجع إلى الجذور . وفي رجوعه إلى الجذور اقتراب من الطمأنينة . لأنّه يسير إلى الغاية المحتومة له . المسير إلى الغاية المحتومة كالأبديّة . في معرفة الأبدية نور ، وفي جهلها شغب وشر . من عرف الأبدية فهو مدرك . ومن أدرك فقد اتّسع أفق فكره . ومن اتّسع أفق فكره كان نبيلاً . ومن كان نبيلاً فهو كالسماء . ومن كان سماويّاً

فقد اقترب من الطاو ، ولا يخشى انحلال الجسد . »

« الحياة ذهاب . والموت إياب . من كل عشرة من الناس ثلاثة هم على عتبة الحياة . وثلاثة على عتبة الموت . وثلاثة بين الحياة والموت . ولماذا ؟ لأنهم لم ينعتقوا بعد من اختبارات الحياة . (ليس من العشرة إلاّ واحد تغلّب على الموت) . »

وما أصدق نظرك في الناس ، وحياة الناس ، وما أشد حنانك عليهم في قولك :

« كم سعادة قامت على تعاسة ، وتعاسة تزيّت بزي سعادة ! »

« الرجل الصالح هو معلم الشرير ، والشرير هو ثروة الصالح . فويلٌ لمن لا يعتبر معلميه ، ولمن لا يقدّر ثروته . لأنّه ، وإن يكن حاذقاً ، يظلّ أبداً في اضطراب . هنا تُعرف أهمية الحياة الروحيّة . »

وما أسلم قلبك وأطهره إذ تقول :

« الحكيم يحب السلام والسكينة ، ولا يبتهج حتى بظفره . لأنّه إن هو ابتهج بظفره فكأنّه يبتهج بقتل الناس . وإن هو ابتهج بقتل الناس ، فأنّى له أن يسوس الملك ؟ »

وما أحكم حكمتك القائلة :

« من يعرف الغير فهو ذكي . أما من يعرف نفسه فمستنير : من يغلب الغير فهو قوي . أمّا من يغلب نفسه فجبّار . ومن

يعرف قيمة القناعة فهو غني .

« من يقدم على العمل فهو جسور . وقد تدوم له جسارته ما دام إقدامه . إلا أن من يقدم على الموت ولا يهلك بالموت فذلك هو الخالد . »

إيه لاوتسو ! يا نقيض الناس ومعلم الناس ! ألا ازرع في نفسي الطمّاعة الطمّاحة ، الحاقدة الناقمة ، المستهزئة المستنكفة ، العاتية المستعبِدة ، الصاعدة الهابطة في زبد أمواج الرغائب والمنى — ألا ازرع فيها حبّةً من بذار قناعتك . وحبّة من بذار محبتك . وحبةً من بذار حريّتك . وحبّةً من بذار وداعتك . وحبّةً من بذار تساهلك . وحبّةً من بذار سلامك . وحبّةً من بذار طمأنينتك !

أُحبُّ وجهك الكالح — وجه المعلم لا يفهمه تلاميذه . وأُحبُّ وجهك الشاحب — وجه العاشق لا وصول له إلى معشوقه . وأُحبُّ وجهك الحائر — وجه من وجد الطريق فخامره شكٌّ بمقدرته على قطعه .

غير أني أحب أكثر من ذاك بما لا يقاس وجهك الذي أدرته عن الجندي على حدود ولاية « تشو » وصوّبته نحو الأفق البعيد. فكأني بولاية « تشو » عالم الحسّ والشهوات . وكأني بك حين تخطيت حدودها ، تخطيت حدود هذا العالم ، تاركاً خلفك ربوات من الديدان البشرية ، تدأب النهار والليل

في حفر الأرض ، كأنها تتحصن في حُفَرها من الموت والفناء ، وما حُفَرَها إلا قبور لها . وكأني بالأفق الذي أدرت إليه وجهك ملكوت الطاو . وكأني بوجهك إذ ذاك شعلة من نور الطاو فلا أثر لحرقة فيه أو للوعة . أو لحزن أو لفرح . أو لأمنية أو لشهوة ، أو لخير أو لشر . وكأني بروحك القُدّوسة تسير حتّى الساعة في سبيلها النيّر القويم الذي لا حد لطوله ، ولا قياس لعرضه . وفي سيرها محجتها .

فهنيئاً لك !

وجه يسوع

أراه مسمَّراً على الصليب ، ودمه القاني السخين يتدفّق من يديه ورجليه ، ويقطر من جبينه فيخضب لحيته وشاربيه . وأرى في جنبه طعنة الحربة . وعلى رأسه المحني فوق صدره أبصر إكليلاً من شوك . وأقرأ على رقعة في أعلى صليبه هذه الكلمات :

« يسوع النّاصريّ ملك اليهود . »

عيناه مطبقتان بقطرات الدم المتحدر من جبينه ، وببصاق الساخرين والشامتين والمتفرجين . منخراه الدقيقان ينفرجان ويستضيقان متباطئين . وشفتاه الرقيقتان الجافتان من العطش قد تباعدتا فبانت من خلفهما أسنانه البيض كالثلج ، وطرف لسانه الذي كاد يلتصق بحنكه .

وحوالي الصليب أبصر نفراً من جنود رومة العاتية القاهرة ، وحرابهم في أيديهم . تحيط بهم جماهير من أحفاد إبراهيم وإسحق ويعقوب — رؤساء كهنة ، وكهنة وشيوخ ، وكتبة وفريسيون ، وتجار وعشارون ، وعمّال وفلاحون ، ورعاع بطالون .

أنظر إلى هذه الجماهير المتمايلة شرقاً وغرباً . وجنوباً وشمالاً . المشرئبة بأعناقها . والمتطالّة بأبصارها إلى مَن على

الصليب . المترنحة بمرأى الدم . المبتهجة بمنظر الألم . التافلة على الوجه المتكمش بأوجاعها وأحزانها . الهازئة باليدين اللتين فتّحتا عيون عميانها . الصارخة شماتة وسخرية في الأذنين الممتلئتين بأنّاتها . الساكبة مرارة في القلب المفعم محبة لضعفها وحناناً على شقائها — أنظر إلى هذه الجماهير فتتجلى لي فيها الإنسانية بأسرها — غابرها وحاضرها وآتيها : أسياد يخافون على قيود عبيدهم من أن تنفك فيشدونها بكلّ ما لهم من القوة . وعبيد يعضّون اليد التي تحاول فكّ قيودهم ، لأن أسيادهم أوهموهم أنّه يوم تنحلّ قيودهم تنحلّ المسكونة .

ثم أنظر إلى وجه المسمَّر على خشبتين معترضتين ، فأرى الدم لا يزال يقطر وقد تجمد بعضه فوق حاجبيه ، وعلى وجنتيه ولحيته وشاربيه . وبعضه امتدّ في شكل رسوم سحريّة سريّة على أسفل الخشبة . وبعضه تجمّع على الأرض بركاً حمراء . وأرى ملامح وجهه المشوّهة بالدم والألم تتبسط قليلاً قليلاً ، وعينيه المطبقتين تنفتحان بهدوء وترتفعان إلى فوق ، وشفتيه المتيبستين ، المتباعدتين تتقاربان فتتلامسان . وأسمع صوته المتهدّج يقول :

« أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون . »

وكيف لمن جعلت التقاليد البشرية قلوبهم من صوان ، وعيونهم من زجاج ؛ كيف لمن استعبدوا الناس لشهواتهم ،

فاستعبدتهم شهواتهم ؛ كيف لمن «لهم عيون ولا يبصرون ، ولهم آذان ولا يسمعون» – كيف لمثل هؤلاء يا ابن النجار أن يدركوا سموّ حكمتك القائلة : «لا تقاوموا الشرّ» ؟

أنّى لهم أن يفهموا ، مثلما فهمت ، أن الأعمال والأقوال تحبل وتلد ، كما تحبل النساء وتلد . فإن حَبِل الشرُّ بالشر ولد شرّاً . وإن حبل الخير بالخير ولد خيراً . وإن لم يكن للشر ما يحبل به من جنسه انقرض من تلقاء ذاته . فالبغض إذا قوبل ببغض ولد بغضاً . وإن هو قوبل بالمحبة فإما يصاب بالعقم فينقرض نسله ، وإما يتلقح بالمحبة فينقلب محبة . وكذلك الكلمة الصالحة إذا قوبلت بكلمة صالحة ولدت كلمة صالحة . والكلمة الطالحة إذا قوبلت بطالحة ولدت كلمة طالحة .

لو فهم صالبوك ذلك لما صلبوك . لأنّك ، إن كنت شرّاً في اعتقادهم ، فبصلبهم إياك قد زادوا في طينهم بلّة . لقد كنت قبل الصلب تؤنبهم بلسان واحد . إلا أنّك حين سُمّرت على الصليب أصبحتْ كلّ قطرة من دمك لساناً هاتفاً في آذانهم . وكلّ أنّة من صدرك بوقاً صارخاً في مجتمعاتهم . وكلّ شوكة من إكليلك حربة ناشبة في صدورهم . وكل جرح في جسمك قرحة في قلوبهم .

غير أنهم لا يفهمون . لذلك يموجون من حولك مهللين معربدين ضاحكين في قلوبهم وقائلين : «خلّص آخرين وأما

نفسه فما قدر أن يخلصها . » وما دار لهم بخلد قطّ أن الروح لا يُصلب . والفكر لا يُرجم . والعاطفة لا تجندل . وأن من رفع صليباً للحقّ لا يصلب عليه إلا نفسه .

إن صالبيك آنئذٍ ، كصالبيك اليوم وغداً ، هم هم . يطعنون الحقّ بحرابهم فترتدّ حرابهم إلى صدورهم من حيث لا يدرون . فليغفر لهم أبوك السماوي « لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون . »

والذين بكوا عليك آنئذ ، كالباكين عليك اليوم وغداً . يبكون شفقة على الحق وهم بالشفقة أولى . فقل لهم ما قلته لبنات أورشليم حين كنت سائراً إلى موتك وصليبك على ظهرك : « يا بناتُ أورشليم لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . لأنه هوذا تأتي أيام يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد ، والثُّديّ التي لم تُرضع . »

* * *

رومة تقلقل سيفها في غمده . وترسل طرفها الفخور إلى جناحَيْ نسرها المسبلين فوق ممالك العالم . وتعود فتنغمس آمنة في مساخرها ومساكرها ، وهمومها وغمومها .

هنود أميركا يسرحون في آجامهم ويمرحون ، باحثين عن طريدة يرمونها بسهم ، أو عدو يشجّون رأسه بفأس . لهم أعراسهم ومآتمهم . ولهم طقوسهم وتقاليدهم . لا يعرفون

من العالم إلاّ أنفسهم . فهم العالم والعالم هم . ومثلهم متوحشو إفريقيا . ومثلهم كل شعب ، وكل أمة في مشارق الأرض ومغاربها .

فقراء ذلك الزمان ، كفقراء كل زمان ومكان ، يرون السعادة في الغنى . وأغنياء ذلك الزمان ، كأغنياء كل زمان ومكان ، يطلبون السعادة في الملذات . والفقير والغني ، والعالم والجاهل ، والسليم والسقيم ، والرفيع والوضيع ، واليافع والمسنّ ، كلهم يتمنّى لو كان غير نفسه . وكلهم يشقى لأنّه هو هو لا غير ما هو . كلهم يطلب فانيات الأرض ويتمرمر إذ يراها تفنى وتُفنيه معها .

أورشليم «قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها» . أورشليم الملحدة بقلبها والمؤمنة بشفتيها . أورشليم المحشوّة فسقاً واللابسة طهارة . أورشليم المحكومة والحاكمة تتحلى بأثمن حلاها وتتردّى بأفخر ملابسها وتخضب شعرها بأطيب العطور . وتملأ خزائنها بأشهى المآكل ، وألذّ الخمور ، لتُعيّد عما قليل لذكر خلاص إسرائيل من نير فرعون . وسرعان ما انقلبت حريتها من المصريين إلى عبودية للبطن وملذاته ، والعالم وشهواته ، شأن كل حرية وهمية يقدسها الناس ويعيّدون لذكرها العام تلو العام .

العالم كله لاهٍ بأفراحه وأتراحه الزمنية . وخارج أسوار

أورشليم في مكان يُدعى موضع الجلجلة أو الجمجمة ، رجل إسرائيلي مُسمَّر على صليب يستعدّ لاستقبال فصح غير فصح موسى . موسى عبرَ البحر الأحمر من أرض فرعون إلى أطراف أرض كنعان . أما هذا المصلوب فقريباً يعبر من عالم الوهم إلى عالم الحقيقة .

ها هو يدنو خطوة خطوة إلى باب ملكوته الأعلى . لكنها خطوات مَن يمشي على جمر . «أما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف . » لذلك ، وقد نهكه التعب ، وأوهن عزمَه الدمُ المتدفق من جراحه ، يجول بعينيه الذابلتين فيما حوله ، فلا يرى إلا وجوهاً ضاحكة لأوجاعه ، ولا يسمع إلا أصواتاً هازئة بجنونه . أين تلاميذه الذين أقسموا له المحبة غير مرة وتركوا العالم وتبعوه ؟ لقد هجره الكلّ حتى تلاميذه ! أفيهجره «أبوه السماويّ» كذلك ؟ ؟

ها شفتاه الجافتان تتحركان ثانية ، ومن صدره الذي وجد اليأسُ إليه منفذاً لأول مرة يخرج أوجع وأفجع ابتهال من بشر إلى إله : «ايلي ايلي ! لما شبقتني ؟» وتفسيره : «إلهي إلهي ! لماذا تركتني ؟ ؟»

أخامرتِ المصلوبَ في تلك اللحظة ريبة من أنّه سيقوم من الموت ، وأنّ ما ألقاه من البذور سينبت ويأتي بثمر ؟ أظنَّ أنها النهاية التي لا بداية بعدها ؟ أم هو الألم الذي لا يطاق حرّك

لسان الجسد الضعيف ، وأخرس لسان الروح النشيط ؟

« ايلي ايلي ! لما شبقتني ؟ » — صرخة قذفها الألم ، صرخة التّراب تفارقه الروح التي قدسته باختيارها إياه مسكناً ثلاثة وثلاثين عاماً . صرخة موجعة عقبتها سكتة مؤنسة . فكأن الروح النشيط الواقف على باب الأبدية خجل من ضعف هيكله التّرابي فانتهره ، فعادت إلى التّراب هيبة الفصول وطمأنينة الأرض .

هوذا الوجه المخدَّد بالوجع ، والمقنَّع بالدم والبصاق ، والمكوي بأشعة الشمس ينبسط لمحة فلمحة . ها هي الأجفان المثقلة بالأهداب الذهبية تنفرج عن العينين الذابلتين . والحاجبان المقطبان يتباعدان . والجبين النبيل المخدش بالأشواك يشرق بنور من فوق . حتى كأن صاحب الوجه ليس مسمَّراً بيديه ورجليه على صليب . ولم يُطعن في جنبه بحربة . ولم يُسقَ الخلَّ بدلاً من الماء . ولم يحمل صليبه إلى الجلجثة . ولم يُلبسه صالبوه جبةً أرجوانية ، ويضعوا في يده عصاً ويهزأوا به قائلين : « السلام يا ملك اليهود » . ولم يُسلِّمه تلميذ من تلاميذه وينكره الثاني ويهجره الآخرون . ولم يرفضه العالم كنبي كاذب ويعلّقه على خشبة كمجرم . ولم يهتف منذ لحظات قليلة هتافه المفجع « ايلي ! ايلي ! » .

حبذا هذا الوجه المجبول من التّراب ، وكأنّه ليس من

التراب . لله ما أطهره وأنبله وأجمله ، وقد تقلصت عنه كلّ أوجاع البشرة ومتاعبها . وما أبعده عن وجوه الجماهير المتألّبة من حوله ، والوجوه الرائحة الغادية في كل معابر الأرض من القطب إلى القطب ، ومن الشرق إلى الغرب !

تلك وجوهٌ كل واحد منها ميدان تتصارع فيه الشهوات خيرها وشرها . والأماني حلوها ومرها . والنيات صالحها وطالحها . والأفكار مؤمنها وملحدها . وكلّ عوامل الحسّ قويّها وضعيفها ، قذرها ونظيفها ، رفيعها ووضيعها ، مفرحها وموجعها .

أما هذا الوجه فلا صراع فيه قط ، لأنّه وجه مَن داس آخر جمرة في سبيله الطويل ، وخطا أول خطوة في سبيله الجديد المفروش بالورود . هو وجه من تفتّتت آخر حلقة من سلسلة قيوده الأرضية فأسبل جناحي روحه ليطير في جو لا قيود فيه ولا حواجز . هو وجه من أدرك المحجّة التي لا محجة بعدها . وجه النبيّ الواقف في حضرة ربّه ومصدر إلهامه ، والرسول الأمين الذي أدّى رسالته بأمانة .

ذلك هو الوجه الذي ألجأ إليه هارباً من وجوه البشر — وجه الناصري بعد أن هتف « ايلي ! ايلي ! » إلى أن فاه بكلماته الأخيرة : « لقد أُكمِلَ . أبتاه في يديك أستودع روحي . »

أحب ذلك الوجه لأن فيه تتجلى كل حياة يسوع ، كما تتجلى السماء في قطرة الماء . وأقرأ فيه خلاصة رسالة النبيّ الجليليّ مخطوطة بأحرف من نور . والذي أقرأه هو هذا :

« أنا هو الطريق والحقّ والحياة . ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي . »

يا للعجب ! سألت غوتاما بوذا عن الرسالة التي جاء يؤديها إليّ — أنا الذي تمثّلَتْ فيّ البشرية بأسرها — فأجابني أنني في ضلال وأنّه جاء ليهديني إلى « الطريق » .

وسألت لاوتسو — معاصر بوذا — عن رسالته إليّ فقال إنني في ضلال وإنّه جاء ليهديني إلى « الطريق » .

والآن أسألك يا ابن مريم عن رسالتك إليّ — وقد جئتني بعد بوذا ولاوتسو بستة قرون — فتجيبني أنني في ضلال وأنّك أتيت لتهديني إلى « الطريق » .

طريق بوذا تؤدي إلى « الذات العالمية » . وطريق لاوتسو إلى « الطاو » ، وطريقك إلى « الآب » . فليت شعري ، هل من عظيمِ فرقٍ بين طريقك وطريقيهما ؟ وبين هدفك وهدفيهما ؟

فمن هو أبوك ؟

لقد قال لي تبّاعك إن في مكان يُدعى السماء ربّاً كان منذ الأزل وإلى الأبد كائن . وإنّه في فترة معلومة من الزمان عنّ له أن يخلق شيئاً من لا شيء . فقال للمسكونة كوني

فكانت . ثم جبل تراباً ونفخ فيه فكنت أنا وكنت سعيداً وكنت كاملاً على صورته ومثاله . غير أنّه لم يكن على يقين من كمالي فنصب لي شركاً لامتحاني . وإذ وقعت في الشرك بلاني بالعذاب والموت .

ثم قال لي تبّاعك إني بُليت بالعذاب والموت ، لأن وقوعي في الشرك خطيئة . والخطيئة شر . وإذ قلت لهم إن الشر كان قبل أن أكون ، لأن شجرة « معرفة الخير والشر » كانت في الجنة قبل أن أدخلها ، إذن كان في الأرض شر يُعرَف قبل أن أعرفه ، وإذن ربّهم ، خالق الأرض ، رب خير وشرّ معاً — إذ قلت لتبّاعك ذلك ، أجابوني : « اصمت يا شرير . »

أما أنت فعلمتني أن « ليس صالحاً إلاّ الله أبوك . » فعرفت أن الصالح لا يخلق شرّاً . وأني أنا — خليقته — لست شريراً .

ثم علمتني أن لا أقاوم الشر . فعرفت أن أباك أعدل من أن يعاقب أول زلة بدت مني بأقسى عقاب حلّ على مخلوق . لأنّه إن يكن وقوعي في الشرك شرّاً ، فالموت الذي بُليت به أشر من ذلك الشر . فإن كان في وسعي ، وأنا بشر ، أن لا أقاوم الشر بالشر ، فكم بالحري أبوك السماويّ ؟ وهل ممكن أن أباك نقض وصيتك قبل أن تفوه بها ؟

لقد قال لي تبّاعك إن ربهم غضب عليّ لأني عصيت

مشيئته . فطردني من وجهه .

أما أنت فعلمتني ، وأنا بشر ، أن أغفر لأخي سبعين مرة سبع مرات . فعرفت أن أباك ، وهو ينبوع الغفران ، أرحم من أن يطردني من وجهه بدلاً من أن يغفر لي هفوتي – إذا كان هناك من هفوة – ويردّني إليه .

لقد قال لي تُبّاعك إن ربهم ربّ رحمة ونقمة . فهو يرحم الذين يمجّدونه ويدفعون سخطه بالصلاة والصوم . ويبيد الذين لا يسجدون له ويسبحونه .

أما أنت فعلمتني أن أدعو أباك « أبانا » . وأن أباك وأبي يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين سواء .

لقد قال لي تُبّاعك إن ربهم قادر على كل شيء . غير أنّه منذ عصيته ما زال يصبّ عليّ وعلى ذريّتي النقمة بعد النقمة ، والضربة تلو الضربة ليستميلني إليه فلم يفلح . لذلك اضطر أن يقدمك أنت – ابنه الوحيد – ذبيحة عني وعن ذريّتي .

أما أنت فعلمتني أنّك تريد « رحمة لا ذبيحة » فعرفت أن أباك الرؤوف الرحيم يريد بالأحرى « رحمة لا ذبيحة » .

لا لعمري . ليس أبوك يا ابن مريم من ربّ تُبّاعك لا بخمر ولا بخلّ . وما أعمق حكمتك التي وقفت بهيبة أمامه ، ولم تحدده بالتصريح بل بالتلميح . وما قولك إن السماء عرشه والأرض موطىء قدميه إلا جزية دفعتها للغة قومك ومداركهم

الروحية . لأنك أحكم بكثير من أن تقيّد أباك بمكان ، أو أن تربطه بزمان . فهو كل الزمان وكل المكان . هو الكل في الكل . الحياة التي منها كل حياة . هو النظام الذي لا يعرف الخلل . والعدل الذي لا يعرف الزلل . والحكمة التي ما بعدها حكمة . والقدرة التي ما فوقها قدرة . هو الوهّاب الثوّاب . الرحيم العليم . هو الرأفة . والشفقة . والمحبّة . هو الآب — المصدر والمآب . نحن منه وإليه نطمح . غير أنّنا ضللنا الطريق . وأنت في طليعة الأرواح التي اهتدت إليها . لذلك أرسلك أبوك لتهدينا . ولذلك نصيخ بشوق إليك عندما تقول :

« أنا هو الطريق والحقّ والحياة . ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي . »

لقد قلتَ إنّك ما جئت لتنقض ، بل لتكمل . أجل ما جئت لتنقض الناموس الذي لا يُنقض ، بل جئت لتُنزل ربّ إسرائيل عن عرشه ، وتُجلس مكانه أباك . جئت لتهدم أبراجاً من الخُرافات بناها الجهل حول رمز موسى الجميل إلى أول عهد انفصالنا عن مصدرنا الإلهي . فهل أكلُ حواء وآدم من شجرة « معرفة الخير والشر » إلا رمزٌ إلى بدء يقظة الفكرة الإلهية في الجبلّة الترابية ؟ وهل « الخطيئة الجسدية » إلا توهّم تلك الفكرة المقيّدة بالتراب أن لا حياة لها بدون التراب ؟ وهل الموت إلا واعظ يذكّرها في كل لحظة أن التراب للتراب.

وأما الروح فللروح . وأنها ستبقى هدفاً للعذاب ما برحت تحن إلى هيكل اللحم والعظم والدم . وأنها يوم تبصر وهمها فتفلت من قيود الجسد وتعود إلى « الآب » مثلما تفلت قطرة الندى من الزهرة وتعود إلى البحر ، يومئذ تدخل « ملكوت الله » ، حيث لا عذاب ولا موت ، بل حياة أبدية .

ملكوت الله ! ما أكثر وما أبسط وما أجمل الأمثال التي حاولتَ أن تفسّر بها هذا الملكوت لسامعيك أيها الناصري ! وكما أساء فهمك سامعوك ، هكذا أساء فهمك تُبّاعك فعلموني أنّ « ملكوت الله » مملكة يحكمها ويسوسها أبوك في السماء . ويفرّق الوظائف فيها على مختاريه . وأنّه ، حبّاً بك ، قد أعطى لممثليك على الأرض الحقّ بأن يفتحوا أبوابها لمن يشاؤون. وأن يقفلوها في وجه من يشاؤون . وهؤلاء من وفرة محبتهم لك قد قاسوا مساحة « الملكوت » بالقيراط والحبّة . وجعلوا لكل قيراط ثمناً من ذهب وفضة .

لقد علّموني كذلك أن أهليّتي لدخول هذا الملكوت أو عدمها تحدّد بأعمالي على الأرض حتى وإن لم أعش من السنين أكثر من عشر .

ولكنك أفهمتني بمثَل الزارع ، والكنز المخفى في الحقل ، أن « ملكوت الله » هو حالة روحية ، يبلغها الذين انعتقت أرواحهم من قيود المادة . فالصخر الذي لم يقبل القمح هو

الروح التي لا تزال هاجعة في الجسد . والطريق التي اقتبلت القمح لحين هي الروح التي لمحت مصدرها الإلهي فعادت متاعب الجسد وأعمتها عنه . والأرض التي اقتبلت القمح وبعد أن نبت خنقته بأشواكها ، هي الروح التي حطمت بعض قيودها الأرضية لا كلها . لذلك لا تزال لاصقة بالأرض . أمّا انعتاقها فقريب . والأرض التي اقتبلت القمح وأعطت ثمراً هي الروح التي أفلتت من عقال المادة لتنضم إلى مصدرها الإلهيّ .

والرجل الذي وجد كنزاً في حقل فمضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل هو الروح التي تركت أوهام الهيولى لتحظى بحقيقة الألوهة .

كذلك أفهمتني أن « ملكوت الله » حالة روحية بأمثالك عن حبّة الخردل . والخميرة . وصيّاد السمك . وتاجر اللؤلؤ وغيرها . فأدركت عندئذٍ قصدك من قولك لتلاميذك : « ملكوت الله في قلوبكم » وأيقنت أن القلوب الفارغة منه اليوم لا بدّ أن تمتلىء به يوماً من الأيام . فالأرض المحجرة ستتنقى يوماً من الحجارة . والمشوكة تنظف من أشواكها . واليابسة تُحرث وتُسقى . فالزمان طويل . ورحمة أبيك أطول . ورسالتك لا تزال سائرة في الأرض .

فكيف أقنط من خلاصي لأن في تربة روحي شوكاً ؟ أم

كيف أقنط من خلاص أخي وأخيك الذي لم تستيقظ روحه بعد ؟ أم كيف أصدق أن أباك وأبي سيطرحني يوماً من الأيام في « الظلمة الخارجيّة حيث البكاء وصرير الأسنان . . . حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ » ؟ أليس أن ذلك اليوم ، يوم فصل الخراف عن الجداء ، والقمح عن الزؤان ، هو اليوم الذي يقتبل فيه أبوك كل روح تغلبت على أوهام الجسد ، ويعيد إلى الأرض كل روح لا تزال عالقة بالأرض « حيث البكاء وصرير الأسنان » ، حيث دود المطامع لا يموت ، ونار الشهوات لا تطفأ ؟

أنتَ الطريق ، يا ابن الإنسان ، وأنت الحق والحياة . وليس لأحد وصول إلى أبيك وملكوته إلا بك . ليس لروح أن تنعتق من سلطة المادة وأوهامها إلا بمعرفة الحق . فمن عرف الحقّ تحرّر به . ومن تحرّر بالحقّ قهر الموت . ومن اتّبع تعاليمك عرف الحق .

فعلّمني !

علّمني كيما تخفت في أذنيّ أصوات الكارزين باسمك كل يوم . المرددين من على عروشهم الرفيعة قولك الوضيع :

« من أحب أن يكون فيكم أولاً فليكن للكلّ خادماً . »

الشاهدين بتيجانهم المرصّعة بالجواهر أنهم خلفاء لك يا من لم يتوَّج إلاّ بشوك .

الناثمين على الأسرّة الحريريّة لمجدك أيها الشاكي :

« للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار . وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه . »

المقيمين أسواراً من حجارة وحديد بينهم وبين « إخوتك الصغار » .

الراكعين بركابهم أمامك ، والساجدين بقلوبهم أمام « ملك هذا العالم » .

المعشّرين النعنع والشبث والكمّون ، ليصونوا سلطانهم على الأرض ، وليشيدوا لك « المساكن » الفخمة .

الجاعلين ثقب الإبرة أوسع من الفضاء كيما تدخُل منه إلى ملكوتك جِمالهم المثقلة بالذهب .

المصعِّدين بخورهم إلى السماء والمالئين بكثرة صلواتهم عباب الجو ليسترضوك أيها القائل : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنّهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلّ إلى أبيك الذي في الخفاء . فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانيةً . وحينما تصلّون لا تكرّروا الكلام باطلاً كالأمم فإنّهم يظنّون أنّه بكثرة كلامهم يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم . لأن أباكم يعرف ما تحتاجون إليه قبل أن

تسألوه . »

علمني كيما تخفت في أذنيّ أصوات هؤلاء المرائين ، وأسمع صوتك قائلاً :

«حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً . » فأفهم أني إن أنا شئت العودة إلى « الآب » فعليّ أن أضع « الآب » في قلبي ، أو قلبي في « الآب » .

فإن أنا أحببتُ مالاً أكثر منك — وأنت الطريق إلى « الآب » — لن أدخل الملكوت . لأن كنزي في المال . وهناك قلبي أيضاً . و « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله . »

وإن أنا أحببت الجاه والسلطان والرفعة بين البشر أكثر منك — وأنت الحق — لن أدخل الملكوت . لأن كنزي في الجاه والسلطان والرفعة . وهناك قلبي أيضاً . و « المستعلي عند الناس رجس عند الله . »

وإن أنا أحببت أبي وأمي وإخوتي وأصدقائي أكثر منك — وأنت الحياة — لن أدخل الملكوت . لأن كنزي في أبي وأمي وإخوتي وأصدقائي . وهناك قلبي أيضاً . و « مَن أحب أباً أو أمّاً أو ابناً أو ابنة » أكثر منك فلا يستحقك . و « مَن ترك بيتاً أو إخوة ً أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً » من أجلك وأجل الإنجيل — وإنجيلك الطريق —

« يأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وإخوة وأخوات وأمّهات وأولاداً وحقولاً[1] مع اضطهادات . وفي الدّهر الآتي الحياة الأبدية . »

وإن أنا أحببت نفسي أكثر منك — وأنت الدليل إلى الحياة الأبدية — فلن أدخل الملكوت . لأن كنزي في نفسي. وهناك قلبي أيضاً . و « مَن أراد أن يخلّص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه » من أجلك وأجل الإنجيل — من أجل العودة إلى مصدرها الإلهي — فهو يخلصها . « لأنّه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه ؟ »

ما زال كنزي في التّراب ، فقلبي عالق بالتّراب . ولن أسلك « الطريق » حتّى أجرد نفسي من كل زائل وفانٍ ، وأتمسّك بما فيّ من ثابتٍ وغير فانٍ ليكون لي « كنز في السموات حيث لا يقرب سارق ، ولا يُفني سوس . »

جمال جسمي يذوي وقوّته تنحلّ . وحاجاته تنتهي عند حافة القبر . وعناصره تتبعثر . فعليّ أن لا أهتمّ بما آكل وأشرب وبما ألبس .

« الحقّ أقول لكم ، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد

---

١ ما أقرب هذا القول من قول لاوتسو عن الرجل الحكيم الذي يجد قلبه في كل قلب ومسكنه في كل مسكن فيعطيه الناس عيونهم وآذانهم .

فلن تدخلوا ملكوت السموات . »

إذن عليّ أن أتجرّد من وهم الخير والشرّ . لأنني لا أعرف الخير المطلق ، ولا الشرّ المطلق . وبمقاومتي لما أحسبه شرّاً ، أو بمناصرتي لما أحسبه خيراً ، كثيراً ما أقاوم النظام الأعلى ، فأشقى وأتألم عندما يسحقني ذلك النظام الذي لا يعرف معانداً . وإن أنا تجرّدت من وهم الخير والشرّ عرفت قيمةً للوداعة . فلا أدّعي لنفسي فضلاً في كل ما أعمل . بل أقول ما أنا إلا « عبد بطال » . ولا أطلب ثمناً من أخي عن شيء . لأن ليس لي حق الملك في شيء . بل أخذت ما أخذته مجاناً ومجاناً أعطيه . ولا أدين أخي بذنب لأنني أحق منه بالدينونة . إذ « ليس صالحاً إلاّ الله » .

وعليّ — لكي أرجع وأصير مثل الولد الصغير — أن أتجرّد من وهم الخطيئة والعقاب . فالولد لا يخطىء ، لأنّه لا يعرف الخير والشر . ولا الحلال والحرام . ولا الكذب والرياء . بل يسير مدفوعاً بقوة النظام السرمدي لا مكبّلاً بأنظمة البشر . فكل ما يعمله ويقوله صالح لأن نيّته سليمة وصالحة . لكنه حالما يتقيّد بأنظمة البشر يدخله الفساد . لأن ما يحدّده الناس كشرّ يصبح شرّاً ليس لأنّه كذلك في حدّ ذاته ، بل لأن الناس يعتقدون به الشر . فليس في الخليقة من خير وشرّ ، لأنها منبثقة من مصدر أرفع من الخير والشرّ . ولا فساد فيها إلاّ اعتقاد

الناس أن هناك فساداً . لذلك لا يدخل أحد من الناس الملكوت – لا يرجع إلى مصدره الأعلى – إلا إذا عاد كالولد فتجرّد من اعتقاده بالخير والشرّ . والحلال والحرام . والخطيئة والعقاب . واستسلم بكليّته إلى مشيئة « أبيه » – إلى النظام الذي لا يختلّ حتى قيد شعرة . ولذلك يعوزه الإيمان .

الإيمان ! الإيمان ! وما أعظم إيمانك يا يسوع !

إني أؤمن بإيمانك . أما إيماني فضعيف . فأعن ضعف إيماني .

أؤمن بأنّك بالإيمان حولت الماء إلى خمر . وفتحت عيون العميان ، وآذان الصمّ . وأطلقت ألسنة الخُرس . وليّنت أرجل المقعدين . وشفيت البرص . وأقمت الأموات . وأصلحت العقول المختلة . ومشيت على الماء . وأشبعت الخمسة آلاف بخمسة أرغفة .

أؤمن بقولك إن « من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشكّ في قلبه ، بل يؤمن أن ما يقوله يكون ، فمهما قال يكون له . »

« ولا يشك في قلبه » ! قوي هو الإيمان . لكنما الشكّ أقوى . فتشكيك بطرس كاد يغرقه حين شاء أن يمشي على الماء . وتشكيك تلاميذك منعهم من « إخراج الشياطين » باسمك . حتى إيمانك لم يتغلّب على شكّ أهل بلدتك الذين حين جئتهم كارزاً قالوا :

« أليس هو النجار ابن مريم أخو يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان . أوَليست أخواته ههنا عندنا ؟ » فلم تقدر أن تصنع هناك « ولا قوة واحدة » وخرجت من بينهم متعجباً من « عدم إيمانهم » وقائلاً : « ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته . »

أؤمن أيها المصلوب بأنك ظهرت لتلاميذك من بعد موتك إنما في جسد غير الذي سُمّر على الصليب . ذلك كان من لحم وعظام ودم . يتألم من المسامير والأشواك والحراب . ويعرف الجوع والعطش . والتعب والنعاس . له حجم وله وزن . أما الجسد الذي ظهرت به فلم يكن كذلك . فقد وقفت فيه فجأة أمام تلاميذك المجتمعين في علّيّة كل أبوابها ونوافذها مقفلة . وكما ظهرت فجأة ، هكذا اختفيت .

لو كان الجسم الذي ظهرت به بعد موتك عين الجسم الذي دُفن بعد الصلب لما ظنّتك مريم المجدليّة حارسَ البستان ، يوم جاءت إلى قبرك فرأتكَ واقفاً أمامها ولم يكن مرّ على دفنك غير يومين . ولـمّا قلت لها : « لا تلمسيني . »

لو كان جسمك بعد الموت ذات جسمك قبل الموت لعرفك تلميذاك السائران إلى عمواس ، حين اقتربت منهما وحدثتهما طول الطريق واتّكأت معهما للعشاء . غير أنّهما لم يدركا أن جليسهما أنت حتى أخذتَ خبزاً وكسرت وباركت . فتذكرا

عشاءك السري قبل أن تُصلب . وإذ عرفاك اختفيت عنهما .

أؤمن بأنّك ظهرت لتلاميذك بعد الموت ، لأن روحك كانت قد تغلبت على المادة فأصبحت سيدتّها المطلقة تستخدمها عند الحاجة . وقد احتاجت روحك إلى هيأة المادة لتعود فتظهر فيها إلى تلاميذك فتشدّد إيمانهم بك الذي تزعزع بموتك .

أؤمن بأنّك « ابن الله » . لأن روحك السامية كانت مع الله بعد أن تغلبت على المادة وشهواتها باجتيازها طريق التجربة والتجرد من المحسوس وأوهامه . وأنها عادت إلى الأرض لتهدي أبناء الأرض إلى « الطريق » المؤدّية إلى « الآب » . وأنها عاشت على الأرض في جسد من لحم وعظام ودم ، مكوّن كجسد كل بشر من أب وأم أرضيين .

أؤمن بأنّ الذين دوّنوا تاريخ حياتك وأقوالك وأعمالك قد دوّنوها بكلّ إخلاص ودونما أقلّ غش . لكنهم من حيث لا يدرون قد دفعوا جزية لظروف الزمان والمكان مثلما دفعت أنت . فأنت إسرائيلي ولم تُرسَل « إلاّ إلى خراف إسرائيل الضالّة » . وإسرائيل عند ظهورك كان — ولا يزال — يحسب نفسه « شعب الله المختار » . وكان له ناموسه وطقوسه وعاداته . لذلك كنت تخاطبه وفي يدك الواحدة « الناموس والأنبياء » ، وفي الأخرى رسالتك التي ما كان أحد في إسرائيل يفهمها ويقبلها لولا العلاقة بينها وبين « الناموس والأنبياء » . لذلك

فالذين آمنوا بك وبرسالتك ، والذين دوّنوا حياتك لم يتركوا نبوءة تنطبق على حالة من حالاتها إلا طبّقوها « ليتمّ ما قيل في النبي القائل » :

أؤمن أيها الناصري بأنّك قد تألمت لأن روحك قد أفلتت من شراك الشهوات ، وأحابيل المطامع ، وأوهام الحس .

وإذ تساورني أوجاعي وأطماعي ، وهمومي وغمومي ، وتزدحم سبلي بوجوه البشر التي أرى في كلها انعكاس وجهي ، أحبّ أن أنصّب في قلبي صليباً . وأن أسمّرك على ذلك الصليب . وأن أنظر إلى وجهك المشرق بنور « الملكوت » حين فتحت شفتيك وناديت أباك : « أبتاه في يديك أستودع روحي . »

أحبّ ذلك الوجه الذي لم يعرف الابتسامة قط . وقد عرف الدمع وكل أصناف الألم . أحبّه لأني أرى وراءه وجوهاً كلّها جميل . وكلّها طاهر . لكنه أجملها ، وأطهرها ، وأبعدها عن الأرض .

فهناك وجه الطمأنينة واقفة على الجبل ومبشرة بالطوبى : « طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات . . . أحبُّوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . . . من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الأيسر أيضاً . . . كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم . . . »

وهناك وجه الصدق يؤنّب الكذب قائلاً : « ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنّكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون لأنّكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة ، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة . . . »

وهناك وجه العدل السماويّ يذرّ بعض أشعّته على عدل الأرض القائل برجم الزواني : « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . »

وهناك وجه المعلّم يكرز في تلاميذه عن ملكوت الروح فيتشاورون فيما بينهم عمّن سيكون الوزير الأول في ذلك الملكوت !

وهناك وجه الرسول الذي عرف أن الذين أُرسل إليهم سيعلّقونه عمّا قريب على خشبة فانفرد بنفسه « الحزينة جدّاً حتى الموت » وخرّ يصلّي إلى مرسله : « أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس . »

وهناك وجه الحقّ صامتاً في حضرة السلطة الأرضيّة التي لا تعرف حقّاً إلا حقها .

هناك وجوه أخرى ألمحها من وراء الوجه الذي يسحرني ، وينسيني نفسي . غير أني لا أقرأ فيها ما أقرأه فيه . والذي

أقرأه هو هذا :

« أنا هو الطريق والحق والحياة . ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي . »

* * *

إيه بوذا ! ايه لاوتسو ! إيه يسوع ! ثلاث منارات على شواطىء الوجود . تستمدّ نورها من مصدر واحد . وتنير سبيلاً واحداً إلى مرفإ واحد .

إن يكن في ما قلت تجديف على « الذات العالمية » يا غوتاما ، فـ « الذات العالمية » أوسع من أن تضيق بتجديفي .

أو يكن فيه تجديف على « الطاو » يا لاوتسو ، فالطاو أرفع من أن يحطّ به تجديفي .

أو يكن فيه تجديف عليك أو على « الآب » يا يسوع ، فأنت أسمح من أن تدين . وأبوك أسمى من أن يهان .

ولتكن وجوهكم النيّرة ملجإي من وجوه البشر ، ومهربي من كهوف الوهم ، ودليلي إلى وجه الحق . آمين .

نهضة الشرق العربي
وموقفه بإزاء المدنية الغربية

جواب على استفتاء الهلال

١ هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء أم هي فوران وقتي لا يلبث أن يخمد ؟
٢ هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها . ومتى . وبأي العوامل وما شأن اللغة في ذلك ؟
٣ هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية وبأي قدر وعند أي حد يجب أن يقف هذا الاقتباس :
أ في النظامات السياسية الحديثة .
ب في الأدب والشعر .
ج في العادات الاجتماعية .
د في التربية والتعليم .

لقد كثرت « نهضاتنا » في هذه الأيام وتعدّدت « حركاتنا » حتى لا تسمع إلا بالناهضين ولا ترى إلا القائمين بحركة ما . فهناك الحركة الوطنية والجنسية والسياسيّة. وهناك النهضة الأدبية والتهذيبية والاقتصاديّة . وكدت أنسى النسائيّة . وكثيراً ما سألت نفسي ماذا عسانا نعني بقولنا « نهضة » . أنقصد أنّنا

كنا غافلين فاستفقنا . أم مستلقين على ظهورنا فانتصبنا . أم سائرين في مؤخرة موكب الحياة فأصبحنا في منتصفه أو مقدمته ؟ وكيف لنا ، كلّما خطونا خطوة ، أن نعرف هل خطونا إلى الأمام ، أم إلى الوراء ، أم بقينا حيث كنّا ؟

قد يحسب البعض مثل هذه الأسئلة ضرباً من البلاهة أو البلادة . غير أني أسألهم بكل احترام أن يطلعوني على المقياس الذي يقيسون به « التقدّم » لأطلعهم على رأيي في « نهضاتهم ».

إن مسافراً خرج من بيته قاصداً محطة القطار فوصلها يعرف أنّه قد « تقدم » في رحلته ذراعاً أو فرسخاً . فكيف لأمّة أن تعرف أنها « تقدّمت » في سيرها ؟ هل يتم لها ذلك إذا انتقلت من حكم أجنبي إلى وطني ؟ أو من ملكي إلى جمهوري ؟ أو إذا كانت لها مدرسة واحدة فأصبحت لها مدارس ؟ أو معمل فغدت وعندها ألف معمل ؟ أو طيارة أو قطعة بحرية صغيرة فأصبحت وعندها طيّارات وأساطيل لا تُقهر ؟ وبعبارة أخرى — هل إذا بلغت الأقطار العربيّة يوماً شأن الولايات المتحدة أو إنكلترا أو فرنسا أو اليابان تحسب أنها « تقدمت » ؟

إذا كان لما تعودنا أن ندعوه « رقيّاً » أو « تقدماً » من معنى فمعناه يجب أن يقاس بالسعادة الناتجة عنه . ولا مقياس للسعادة ، في نظري ، إلا واحد . وهو مقدار التغلب على الخوف بكلّ

أنواعه — خوف الموت وخوف الجوع والألم والفاقة والعبودية وكل ما هنالك من ضروب الخوف . لأن التغلب على الخوف يولّد تلك الطمأنينة الروحية التي لا سعادة إلا بها . فإذا كانت المدنية الغربية ، كما نعرفها ، تساعد على استئصال الخوف أكثر من المدنية الشرقية فهي حريّة بالحفظ والتقليد . وحريّ إذ ذاك بالشرق أن يتبنّى من الغرب برلماناته ومعاهده العلميّة والمدنية وأن يتزيا بأزيائه الأدبية وأن لا يقف في تقليده عند حد .

فلنقف هنيهة ولنقابل بين المدنيّتين لنرى هل المدنيّة الغربية حريّة بأن تتخذها الأقطار العربيّة قبلة لها .

عندما أسأل نفسي عن الفرق بين الشرق والغرب أراه منحصراً في نقطة واحدة جوهرية . وهي أن الشرق يستسلم لقوة أكبر منه فلا يحاربها والغرب يعتدّ بقوّته ويحارب بها كلّ قوّة .

الشرق يرى الخليقة كاملةً لأنها صنع الإله الكامل . والغرب يرى فيها كثيراً من النقص ويسعى « لتحسينها » .

الشرق يقول مع محمد : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . » ويصلّي مع عيسى : « لتكن مشيئتك . » ومع بوذا يجرّد نفسه من كل شهواتها . ومع لاوتسو يترفّع عن كلّ الأرضيات ليتحد بروحه مع « الطاو » أو الروح الكبرى . أما الغرب فيقول : « لتكن مشيئتي . » وإذ يخفق في مسعاه يعود

إليه ثانيةً وثالثةً ويبقى يعلل نفسه بالفوز . وعندما يدركه الموت يوصي بمطامحه لذريته .

الشرق توهّم مرّةً أن في إمكانه الوصول إلى عرش ربه . فبنى برج بابل . وإذ هبط برجه أقرّ بضعفه وجبروت خالقه وسلّم . أما الغرب فيبني كلّ يوم برجاً . وكل يوم يهبط برجه . فيعود إلى ترميمه مصمّماً على إدراك كنه الوجود من تلقاء نفسه .

الشرق يقول : « ولا غالب إلا الله . » أما الغرب فيقول : « ولا غالب إلا أنا . »

إن ادّعاء الغرب بقوّته واستسلام الشرق لقوةٍ أكبر منه هما الحد الفاصل بينهما . وعندي أن في إقرار الشرق بضعفه تجاه قوى الموت والحياة غلبةً له . وفي مكابرة الغرب بقواه إزاء قوى الموت والحياة انخذاله واندحاره . فما الغرب محاولاً إصلاح الخليقة وفهم أسرارها إلاّ كسمكة في بحر تحاول « تحسينه » والوقوف على مكنوناته .

إن ما أدركه الشرق منذ أجيال بإيمانه واختباراته الروحية يحاول الغرب اليوم أن يتوصّل إليه بمكرسكوبه وتلسكوبه . ومن العِبَر أنّه كلّما تعمق في درسه عاد إلى الشرق ونفض عن بعض تعاليمه غبار الدهور وصقلها ثم عرضها على إخوانه كأنّها حقائق جديدة . فهو ينقب في هذه الأيّام عن فلسفات الصين

والهند واليهود والعرب والعجم ليجد فيها مفاتيح لما أُقفل في وجهه من أسرار الوجود وعبثاً جرّب أن يفتحه ببراهينه وتعاليمه .

هوذا عالم غربي كبير يدعى فلاماريون يترك النجوم التي قضى خيرة حياته في درس أسرارها ويكرس ثلاثين عاماً من عمره « ليبرهن » للغرب في ثلاثة مجلدات ضخمة عن أن الإنسان مركّب من روح وجسد . وأن الجسد يتحوّل بالموت أما الروح فتبقى . وقس عليه السر وليم كروكس وأولفر لودج وكونان دويل وسواهم . فإذا كان الغرب قد أدرك اليوم، أو أخذ يدرك ، هذه الحقيقة « بالبرهان » فالشرق قد عرفها منذ نعومة أظفاره بإيمانه . وقد شاد عليها ، وعلى سواها من الحقائق المنزلة ، بنيان حياته .

قلت « الحقائق المنزلة » إذ ليس في نظري من حقائق سواها. فالإنسان من تلقاء نفسه قاصر عن إدراك سرّ الوجود . وهذه الحقائق هي ميراث الشرق منذ ولادته . أمّا ما ندعوه في هذه الأيام « حقائق علميّة » ونكيّف معيشتنا بموجبه فليس إلا ضرباً من التخمين نتلهى به من يوم إلى يوم . فمن ميزات الحقيقة أنها حقيقة في كل زمان ومكان . أمّا « الحقيقة » التي نتزوجها اليوم ونطلقها في الغد فما تلك بحقيقة على الإطلاق . وأكثر ما يقال فيها إنها « تقدير معقول » لوقتٍ محدود . وإنها صالحة

إلى أن يظهر ما هو أصلح منها بالنسبة إلى مداركنا . أوَليست هذه حال الغرب مع علومه وعلمائه ، وحالنا مع الغرب ؟

لو أخذتَ من المدنية الغربية ما استعارته من الشرق لتركتها لحداً مطليّاً من الخارج بالذهب وفي الداخل محشوّاً عظاماً ودوداً. لو قلت للغرب يوماً : « ها أنا سأجمع كلّ آثاركم الكتابيّة وأحرقها إلا واحداً ، ولكُم أن تختاروه » فماذا ترى يختار الغرب ؟ يختار ، ولا شك ، الكتاب المقدّس ! ولو فعلت ذلك بالعالم الإسلامي لاختار القرآن الشريف . فإذا كان أثمن آثار الغرب وأعزّها هو هبة الشرق فكيف للشرق أن يمدّ يده إلى الغرب مستعطياً ؟ وماذا عساه يستعطي سوى طيّارات وقطارات ودواليب وأسلاك ولوالب ومدرّعات وبرلمانات ومتاحف ومعاهد ومقاصف ومخدّرات وعلل ومشاكل كثيرة ليست لتدنّيه من كنه الحياة ولا لتعطيه طمأنينة روحية ليس يحصل عليها بإيمانه ؟ أما الثمن الذي يدفعه إلى الغرب لقاء ما يستعيره منه أو يستعطيه ، فعزة النفس وراحة الفكر والاعتراف العلني أنّه — وأعني الشرق — مزبلة العالم وأن الغرب جنته الغنّاء.

إذا كان ما نقصدم « بنهضة » الأقطار العربيّة هو طموحها إلى مجاراة الأمم الغربيّة في حلبة الاقتصاد والسياسة والسيطرة ومناهضتها بسلاحها فليس لهذه الأقطار إلاّ أن تحذو حذو اليابان وأن تقتبس كل ما يمكنها اقتباسه من الغرب دون

تمييز وبأسرع ما يمكن . غير أني لست أتمنّى للأقطار العربية مثل هذه « النهضة » . وفي اعتقادي أن فرسخاً مربعاً من بلاد الصين « الخاملة » يحوي من الجوهر أكثر من كلّ جزائر اليابان « الناهضة » .

إن الشرق لفي غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنيّة الغربيّة إذ ليس الاقتباس إلا تقليداً . وكل من يقلّد سواه لا يكون مخلصاً لنفسه . لأنّه يخفي حقيقته ليظهر بحقيقة سواه . وفي كل أمّةٍ ، مثلما في كلّ فرد ، حقيقةٌ كلٌّ جمالها في أن تظهر كما هي . لذلك لا أرى كيف يمكننا أن نقلد الغرب في أمر من الأمور دون أن نخون أنفسنا ونمسخ الحقيقة التي فينا . لنأخذ الشعر مثلاً . ما الشعر ، ولا الأدب بأسره ، إلاّ عواطفنا وأفكارنا منظومة أو منثورة . فإذا قلّدنا في نظمها أو نثرها الغربيَّ فنحن ناظمون وناثرون عواطف وأفكاراً غير عواطفنا وأفكارنا . وإذ ذاك لا شعرنا شعر ولا أدبنا أدب . وليس أقلّ قباحة من ذلك تقليدنا لأبناء الجاهلية أو ما بعدها . فجمال الشعر إنّما هو إخلاصه في تصوير الحقيقة الكائنة في نفس الشاعر . وفي ذاك سرّ الابتكار والإبداع .

لقد قلت ما قلته في المدنيّتين — الشرقية والغربية — وأنا عارف حق المعرفة أن المدنية الغربية ، وإن تداعى بنيانها ، لا تزال برّاقة غرّارة . وأنها لن تهوي إلى الحضيض قبل أن

تشمل المعمور بأسره . وأن الأقطار العربيّة سيكون لها من هذه المدنيّة نصيب كبير قبل تلاشيها . لكنني أحجم عن التكهن بمقدار ذاك النصيب وبوضع حدوده الزمانيّة والمكانيّة ، تاركاً ذلك لمن ميّزهم الله بمقدرة النبوءة .

ليرشقني من شاء بقوله : « إنّه رجعي يعود بنا إلى مجاهل الدين وخرافاته . » فما ذاك ليثنيني عن اعتقادي بأن الشرق أقرب من الحقيقة بإيمانه من الغرب بفكره وعلمه وبرهانه . وأن الغرب المكابر بقواه ، إن لم يكن أشقى من الشرق المستسلم لقوى فوق قواه ، ليس أسعد منه ولا أرفع ولا أشرف . بل إن القائل من كل قلبه : « ولا غالب إلا الله » لأحكم ، في نظري ، وأكثر طمأنينة روحيّة من القائل : « ولا غالب إلا أنا » . وإن لم يكن بدّ للواحد من التتلمذ للآخر فالغرب أحوج إلى مدرسة الشرق من الشرق إلى مدرسة الغرب .

مشهدان

المشهد الأول

نيويورك – تنين البحر والبر

(عصر نهار في أواخر تموز)

التنّين يتنفّس :

أنا جالس في حديقة صغيرة في منتصف المدينة تدعى « مديسن سكوير » . يشاطرني المقعد الخشبي ثلاثة رجال وامرأتان . عن يساري رجل يظهر لي من زيّه أنّه عامل يستريح بإرادته أو قسر إرادته . فقد يكون من الملايين الذين ليس لهم ما يعملون ليرتزقوا . لقد اتكأ بمرفقيه على ركبتيه . وسند رأسه بكفيه . وستر بقبعة ممزّقة جبينه وعينيه . هو نائم لأني أسمع له بين الآونة والأخرى غطيطاً ثقيلاً .

عن يميني زنجيّة فطساء الأنف ، غليظة الشفتين ، سميكة العظم ، جزيلة الشحم واللحم . في فمها علكة تديرها بلسانها من طرف في شدقها إلى طرف . فيُسمع لها صوت كخفق أخفاف الجمال في الأوحال. كلّما مضغت مضغة شعرت كأنّ

إبراً تخزني في كلّ مسم من مسام بدني . فأهمّ بالهربة . لكنني أعرف حقّ المعرفة أنني لو تركت مقعدي لما وجدت في كل الحديقة بدلاً عنه . فأزجر نفسي وأقول لها : «إن الله مع الصابرين !» وألتصق بمقعدي أمكن من ذي قبل ، مشنّفاً أذني بنغمة علكة الزنجيّة ، ومعطراً أنفي براثحة الشحم السائل من بدنها عرقاً تحت أشعة الشمس الحرّاقة .

أمام الزنجيّة درّاجة جميلة للأطفال فيها توأمان أبيضان يظهر أنهما من أبناء الرفاهية ، والزنجيّة مرضعة لهما . التوأمان نائمان والزنجية تطرح عليهما من حين إلى حين نظرة الأسير إلى قيده ، أو الحمار إلى حمله .

على مقربة من المقعد حيث أنا صبيةٌ وبُنَيّات يلعبون . لكن في حركاتهم تثاقلاً . وفي أصواتهم اختناقاً . وفي وجوههم تعباً ومللاً . ذلك من شدّة الحر . يقع الواحد منهم على الأرض فيأبى النهوض ، أو ينهض متواكلاً متكاسلاً كساعة توقظه أمّه من النوم ليذهب إلى المدرسة .

في الحديقة بقع من العشب الأخضر يكاد العشب فيها لا يُرى لكثرة الأجسام البشرية الملقاة فوقه . أكثرها مستّر بأطمار تدل على أن أصحابها من الذين لا يرى التنين فيهم شيئاً سوى عضلاتهم . فإن هو احتاجها أطعمهم . وإلا تركهم وشأنهم يتنقّلون من حديقة إلى حديقة ويصطادون قوتهم من فضلات

التنين صيدَ العصفور لحشرات الأرض وهوام الهواء .

ممرّات الحديقة الإسفلتية، ومقاعدها الخشبية ، ومنفرجاتها الصغيرة العشبية مكتظّة بأمثال هؤلاء وبأصناف عديدة من البشر سواهم ، قذفتهم إلى جوف التنين كل أنواع الأقاليم والديار على وجه الأرض . السائرون منهم يسيرون شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً . رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً . يسيرون بلا انقطاع كعسكر من النمل . بعضهم يجرّ رجليه جرّاً ، وبعضهم يسرع مروّحاً بمنديل أو بجريدة أو بقبعة كأن قوة هائلة تضغط على صدره أو عبئاً يُثقل كتفيه .

السائرون والجالسون والممددون على الأرض كلّهم يصعّد أنفاساً حارة ويشتهي لو انقلبت الحديقة الصغيرة فجأة بحراً كبيراً ليرمي إليه بثيابه الملتصقة بجلده التصاق رقعة الخردل وليغمس في أمواجه جسمه الشاعل بدون لهيب .

من هم هؤلاء الناس ؟ من أين أتوا ؟ لماذا أتوا ؟ وماذا يعملون في جهنم الأرض ؟

أطرح عليهم هذه الأسئلة بعينيّ فتجيبني وجوههم المجبولة من تربة كل أرض بكل ألسنة الأرض : ومن أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ ولماذا أتيت ؟ وماذا تعمل في جهنّم الأرض ؟ فأصمت حائراً وأعود أقلّب نظري في جماهيرهم المتألّبة .

بويا مستر ؟ بويا ؟ — هذا صوت واحد من كثيرين من

الأولاد الذين يتسابقون بين أرجل المارة في الحديقة فلا تلمحهم العين حتى يتواروا عنها ، كأنهم رِجلٌ من الجندب . بعضهم لا قبّعات على رؤوسهم ؛ ولا قمصان ، بل آثار قمصان ، تستر أبدانهم ؛ ولا أحذية ، بل بقايا أحذية ، تحمي أرجلهم الصغيرة من النار الكامنة في الإسفلت تحتها . في يد كل منهم صندوقة صغيرة تحوي فرشاة وبضع علب تنكية وخرق قذرة .

بويا مستر ؟ بويا ؟

حذائي ليس بحاجة إلى التنظيف . لكن هذا الولد اليوناني أو الإيطالي أو البولندي يخالفني في الرأي . وهو أعلم بحاجات الأحذية مني . لذلك أكبّ على حذائي ينظفه غير آبهٍ بمشيئتي على الإطلاق .

امسح يا ولد ! لا بأس ! أنت صورة الله ومثاله ، فيا للتنين الذي مسخك منظفاً للأحذية لأن في جوفه عيالاً لا رزق لها إلا من كدّك وكدّ إخوانك من ذوي الخرقة والفرشاة . فالمجد لك . والمجد لهم . وليكن اسم التنين معظماً من الآن إلى أن يقيّض الله له جاورجيوسه .

في الحديقة طائفة قليلة من الأشجار الهزيلة التي كيفما التفتت رأت نفسها غريبة التربة والديار . تحيط بها من الجهات الأربع جبال من الحجر والحديد هي بنايات تتسابق صعوداً في الهواء . هناك بناية « المتروبولتن » تتوّجها قبّة عالية . وتزين

القبة ساعة دقّاقة يقف الرجل على عقربها فيبين للجالس في الحديقة بحجم الديك أو أصغر . وهناك بناية « الكاوي » ويا له من كاوٍ ! وما ذاك الزمان ببعيد يوم كانت أقرب البنايات إلى الشمس . لكنها اليوم قد طأطأت رأسها أمام علوّ كثيرات بُنين بعدها . وهناك بناية « الافنيو الخامس » وسواها ، ثم سواها ، ثم سواها من البنايات التي تتنفس اليوم بألف منخار والتي تطلب النسيم فلا تجده فتحتال للحصول عليه بمراوح كهربائية .

بين أوراق الأشجار أسراب من عصافير « الدوري » تسمع لها ثرثرة متقطعة . ليس في الأشجار غصن يميل ولا ورقة تتحرك . ولو أن حديقة « مديسن سكوير » حلفت في هذه الساعة أن ليس في الأرض ما يدعونه نسيماً لكان حلفها صادقاً أمام السماء والأرض .

الشمس في السماء . لكنّ مَن في الحديقة يشعرون بها ولا يرونها لأنّها مقنّعة بقناعٍ أغبر كثيف ، ليس ضباباً ، ولا سحاباً . إن هو إلاّ أنفاس التنين المتصاعدة من ألوف المداخن ، وملايين النوافذ ، وجبال متراكمة من الحديد والحجر والقير والاسفلت ، وقوافل لا يدرك أولها وآخرها من العجلات — العجلات المسيرة بالغازات والمسيرة بالبخار والمسيرة بالكهرباء . تتصاعد هذه الأنفاس في الهواء فينوء تحتها الهواء . ترفعها

الأرض بكل قواها إلى فوق فتشمئز منها السماء وتضغط بها إلى أسفل . فتبقى عالقة بين الأرض والسماء . حافظة من الشمس حرارتها . خانقة من النسيم أنفاسه . ضاغطة بصفائح من حديد محميّة في نار جهنم على صدر التنين المتمدّد بين نهرين ، الفاغر فاه ليشرب البحر ويبتلع البر دون أن يرتوي يوماً أو يشبع .

التنين يتنفس ويكاد يحترق بأنفاسه . وجاري الذي عن يساري يغط ويحلم أحلامه . وجارتي التي عن يميني تتشدّق بعلكتها وتحلم أحلامها . والتوأمان في الدرّاجة أمامها يحلمان أحلامهما .

وأنا تساورني خيالات أيامٍ تُقصيها مرارة السنين فتدنيها حلاوة الذكرى .

المشهد الثاني

الشخروب — في سفح صنين

(عصر نهار في أواخر تموز)

صنّين يتنفّس :

أنا مستلقٍ على صخرةٍ دهريّة بيضاء . فيها نواتىء مسننة كالحراب . تتخللها منبسطات ملِسة ككف العذراء . من ورائي

صخور تتعالى إلى السماء وتطرح عليّ ستراً من الظلّ ناعماً كالمحبة ، مؤنساً كالرجاء ، عابقاً بالسلام والطمأنينة كالإيمان .
بيني وبين تلك الصخور قناة تتسابق فيها قطرات نبع صنين متهامسة فوق الحصى ، مترنمة بين الأعشاب ، متهللة عند انحدارها من علو صغير ، ناشرة في الهواء أنفاسها البليلة .
أنا أسمع همسها وترانيمها وتهاليلها . وأشعر بمرّ أنفاسها على وجهي ويديّ .

فوق رأسي سماء كيفما قلّبت طرفي لا يقع فيها على شبه غيمة . هي زرقاء . زرقاء . زرقاء ! وبعيدة . بعيدة . بعيدة ! أنا أعرف أن تلك النقطة الغبراء فيها ليست غباراً ولا دخاناً . بل هي نسر أسبل جناحيه القويين وراح يدور في الفضاء دورات لولبية متصاعدة ، محدّقاً إلى الأرض، باحثاً فيها عن فريسة أو طريدة يجعلها عشاء ليلته أو عشاء صغاره .

عن يساري شابّ سقاه صنين العافية والعزم والأمل . إنّه مكبّ على بقعة من سنابل القمح يقطعها بمنجله قبضة قبضة . أراه ينتصب ثمّ ينحني . وأرى المنجل في يده يصعد ويهبط بارقاً في الشمس ، مرسلاً في الأثير تموجات رنّاته الفولاذية كلما هبط على قامات السنابل فاعترضته حصاة في الحقل أو نبتة قويّة . أسمع رنّات منجله تندمج بنبرات صوته الفتيّ المتموّج :

« من هون لأرض الديْر   من هون لأرض الديّر
والسر   السلي   بيننا   إيش   وصّله   للغير
وان كان ما في ورق   لاكتب على جنح الطير
وان كان ما في حبر   بدمـوع عينيّا ! »

ثم أراه يجمع ما يقطعه من السنابل كوماً كوماً ، حاملاً منجله على ذراعه وماسحاً عرق وجهه بيده .

عن يميني مرجة خضراء . وعلى بساطها الأخضر قد تمددت بقرة سمراء حلوب . تبارك الله ما أكبر درّها ! هي ناعمة البال . مطمئنة القلب . وما همّها ، والمرعى خصب ، والمورد عذب ، وابنتها بجانبها ؟ تجترّ فتغمض عينيها على مهل ثمّ تفتحهما على مهل . وبين الآونة والأخرى تطرد البرغش عن وجهها تارة بأذنها اليمنى وطوراً باليسرى . أسمع كيف تطحن الجيرّة بين فكّيها ، فأشتهي لو كان لي ما أعلكه نظيرها .

عند أسفل الصخرة ، حيث أنا ، بلّوطة كبيرة منبسطة الفروع والأغصان . بين أوراقها أجواق من الحساسين ترفرف من غصن إلى غصن وقد علت زقزقتها حتى كأنها في عرس أو مهرجان من الألحان . وما ألحانها إلا فيضان ما في قلبها من الغبطة بالوجود . لقد زارت الحقل في نهارها ففرش أمامها الحقل خيراته . وقصدت النبع فروّاها النبـع بقطراته .

واستنجدت الهواء فمدّ لها الهواء بساطه . واستدفأت الشمس فغمرتها الشمس بأنوارها . كان الربيع فبنت أعشاشها. وباضت ونقّرت وأنمت فراخها . وجاء الصيف فلم يبقَ لها من همّ سوى الصيد ، ومن تسلية سوى التغريد . والصيد وافر فعلامَ لا تغرّد ؟

من خلال أغصان البلّوطة ، حيث الحساسين ، تتراءى لي أغصان أشجار كثيرة — أشجار بلّوط وسنديان وزعرور وبرقوق ، كلّها وَرِقٌ نضر . كلّها آهل بالعصافير . يخاصرها النسيم فتراقصه على تقاطيع الأغاريد . هاماتها تتناءى عن بصري منحدرة نحو الوادي العميق ، حيث ساقية صغيرة تكرّ جمزاً وحلجاً — من صخر إلى صخر ، ومن مرتفع إلى منخفض . الصخور عن جانبيها متراكمة كالغيوم ؛ لكنها غيوم جامدة بيضاء ، يتطاول بعضها إلى السماء فإخاله عن بعد غيمة على الأفق . بين هذه الصخور سبيل ضيق تسلكه البشر والبهائم بصعوبة وتلقى الجمال في قطعه من العذاب ألواناً . هو السبيل الواصل بين بسكنتا وزحلة .

« دِن . . . دن . . دن . . . » هذه أجراس قافلة من المكارين قادمة من زحلة . وهذا صوت صاحب البغلة الدهماء السائرة بغنج وتعزز في مقدمة القافلة :

عيونِكْ سودْ والكحله خفيّه   رميتِ بضامري علّه خفيّه

يا ربّي تدوم هالعِشره خفيّه   بين اتنين ما يدري حدا

المكاري يصلي لإله الحب . وأجراس بغلته تردّد صلاته . الساقية في الوادي تكرّ بها إلى البحر . والنسيم يذيعها بين الصخور والأشجار . والشمس ترفعها إلى السماء . وقلب ذات « العيون السود والكحلة الخفيّة » ينبض بها حيث هو ولا يبوح بالسر .

أنظر إلى يساري فأرى تلالاً عارية من الأشجار مغطاة بملاءة ذهبية من السنابل والأعشاب البرية . وأرى بين السنابل مناجل تلمع ، وقامات بشريّة تنتصب وتنحني ، وبهائم ترعى ؛ وتطرق أذني بين نبرات أصوات عديدة مرتجفة في الهواء هذه الكلمات :

« يا نخلة ال بالدار ناطورك أسدْ
وتْكسّرِتْ الأغصانْ مِن كتْر الحسدْ
أنا ال زرعت الزرع جا غيري حصدْ
يا حسرتي ردّوا القمح لعدالنا . »

أراقب الحاصدين والملاءة الذهبية المنشورة على التلال فأرى التلال كأنها أمواج بحر زاخر . أراها تنخفض وتتعالى وتميد من جانب إلى جانب ، ثم تبلغ نقطة تأخذ عندها بالتصاعد دون انخفاض .

ها هي قد اصطفّت بعضها إلى جانب بعض . فتوازت منها القامات والتصقت الكتف بالكتف حتى أصبحت سوراً منيعاً هائلاً . أسفله قائم على صخور الأودية البعيدة ، وأعاليه تتمدّد وتتسامى ، وأطرافه تنبسط جنوباً وشمالاً . ها هو يتعالى رويداً رويداً وبصري يتسلّقه ذراعاً ذراعاً ، من أسفل إلى أعلى ، إلى فوق ، إلى فوق . أين آخره ؟ لقد اندمج بالأفق حتى كأن السماء تتوكّأ عليه . أو كأنّه عماد قبتها الفسيحة الزرقاء . وإذ التصق بالسماء وقف ثابتاً ، ساكتاً، كاشفاً صدره لأشعة الشمس ، مبرّداً قدميه في لجّة البحر ، وباعثاً في الهواء أنفاسه الباردة بلسماً للبشر والبهائم والحقول .

تُرى ما هذا السور ومن أين ؟

هو صنين . فلذة من كبد الأرض وشامة في خد السماء .

صنين يتنفّس ويحلم أحلامه . والحاصد عن يساري يقطع سنابله ويحلم أحلامه . والبقرة عن يميني تجترّ وتحلم أحلامها .

العصافير في البلوطة تسدي الخالق شكرانها . والمكاري في الوادي يرفع إلى الله صلاة حبّه .

النهار يتقلّص ، والظلال تستطيل ، وعلى الصخرة الدهرية البيضاء صبيّ يحلم بجنّات مدنية غريبة قصيّة . . .

إلى الجندي المجهول

في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني ، بعد مرور عامين لعقد الهدنة بين الحلفاء وألمانيا سنة ١٩١٨ ، احتفلت إنكلترا احتفالا باهراً بنقل بقايا جنـدي مجهول مـن جنودها الذين قضوا في الحرب إلى مدفن أعلام البلاد ومشاهيرها (وستمنستر آبي) ، وذلك تخليداً لذكر جنودها الذين اشتروا الغلبة على الألمان بدمائهم . وفي النهار ذاته ، وللغاية ذاتها ، دفنت فرنسا بقايا جندي مجهول من جنودها تحت قنطرة النصر في باريس . وكلا الاحتفالين كان نادراً بهيبته ، إذ حضره كل أعيـان البلاد من الملك والرئيس فما دون .

* * *

بالله مَن أنت يا أخي المجهول ؟

ها مشَتْ خلفك الملوك ، وأبناء الملوك ، وحاشيات الملوك — من سيّد وأمير ، ووزير خطير ، وقائد كبير .

تحميك فرسان عن يمينك ، وفرسان عن شمالك ، وفرسان من ورائك . وأمامك الموسيقى تنتحب وتنوح .

تجرّ نعشك جيادٌ مطهّمة . ويكتنف نعشك العلم الذي قدّمتَ حياتك من أجل شرفه . وتحفّ بنعشك ألوف فوق ألوف من أبناء أمّتك ، ومن بنات أمتك .

بين تلك الألوف وجوه سوّدها الحزن . ووجوه شحبها الملل . ووجوه بَيّضها البَطَر .

وفي تلك الوجوه عيون دامعة لا ترى سواك . وعيون باسمة ترى مَن حواليك وما حواليك ولا تراك . وعيون لا تراك ، ولا ترى مَن حواليك ولا ما حواليك .

وفي صدور تلك الألوف ، ألوف من القلوب . بعضها يودّ لو كان نعشاً لك . وبعضها يشكر الله لأنك في النعش لا هو . وبعضها يتمنّى لو أتيح له أن يركب مركبتك ولو لحظة قصيرة ليرى الملك والملكة ووليّ عهدهما عن كثب .

بين تلك الوجوه وجه ، لو أعطِيتَ عينين ، لعرفته عيناك من بين ألوف الوجوه — هو الوجه الذي استقرّ عليه نظرك أول ما انفتحت عيناك لنور الحياة ، والذي أطبقت أجفانك عليه ساعة انقلب النور في عينيك ظلاماً أبديّاً .

وبين تلك العيون عينان ، لو عاد النور إلى عينيك ، لرأيتَ نفسك مرسوماً في حدقتيهما — هما العينان اللتان أبصرتاك ، وأنتَ لا تزال في رحم السكينة محجوباً عن عيون الناس .

وبين تلك القلوب ، قلب لو عاد قلبك نابضاً ، لعرفه من بين كل القلوب — هو القلب الذي سكنتَ في ظلّه تسعةَ شهور فكان ينبوعاً يغذيك بدم الحياة ، وترساً يصونك من

الموت ، وقيثارة تنبه روحك من غيبوبة الموت إلى يقظة الحياة .

إن المليك الذي وقّع على الأمر بإشهار الحرب التي اغتالتك يمشي اليوم في جنازتك مطأطيء الرأس ، كالح الوجه ، ملجوم اللسان . أتراه آسفاً عليك ؟ أم نادماً على ما فعل ؟ أم شاكراً ربّه لأنّك قضيت فبقي له تاجه وصولجانه ؟ أم تراه لا آسفاً ولا نادماً ولا شاكراً بل ماشياً كما تمشي الملوك إذا قضت الحاجة أن يمشوا ، إن في جنازة ، أو في عرس ، أو في مهرجان .

والوزير الذي انتشلك من حضن أمك وأبيك ، وأرسلك إلى ميدان القتال لتفتدي شرف بلادك بدمك ، لتناضل عن حقوق الحق ، لتسند البائس والضعيف ، لتطلق العبد من عبوديّته وتحفظ للحرّ حريته ؛ لتسحق الاستبداد ، ولتضع الحق موضع القوة — إن ذاك الوزير نفسه يسير اليوم مع أعوانه من الوزراء خلف نعشك صامتاً مطرقاً .

فماذا عساه يقول في نفسه ؟

أتراه يذكر يوم صاح بشعبه « يا للرجال ! » فهبت الرجال إلى السلاح وسحقت أعداءه سحقاً ؟ أم تراه يقيس في فكره مساحة الأرض التي ضمّها إلى حدود مملكته ، ويعدّ النفوس التي أضافها إلى الخاضعين لسلطة بلاده ؟ أم أنه يهيّء خطاباً جديداً يلقيه في البرلمان عن الخسائر الفادحة التي تكبدتها

وستتكبدها حكومته في سبيل الحقّ والعدل والحرية ؟ أفي قلبه شفقة عليك أم نقمة على أعدائه ؟ أهو ينظر إلى الماضي فيغبط ذاته بفوز سياسته وفشل سياسة أضداده ؟ أم إلى الآتي فيرى نفسه جبّاراً من جبابرة التاريخ ؟ أم إلى الحاضر فيرى المظلوم لا يزال مظلوماً ، والعبد عبداً ، والقوة حقّاً ، فيشعر بوخزات في ضميره ، لأنّه رشّ في عينيك رماداً ، وأعطاك سلاحاً ما قتلتَ به إلا نفسك ؟

أم هو يمشي كما يمشي الوزراء إذا قضت السياسة أن يمشوا إن في جنازة أو في عرس أو في مهرجان ؟

والقائد الذي كنت تأتمر بأوامره ولا تراه ، والذي كان يحركك بأصابع خفيّة في ميدان القتال كما يحرك لاعب الشطرنج قطَعَهُ الخشبية على رقعة الشطرنج ؛ والذي كان يقول لك اهجم فتهجم ، وارجع فترجع ، ونم طاوي البطن فتنام طاوي البطن ، وامشِ سحابة ليلك ونهارك فتمشي سحابة ليلك ونهارك ؛ والذي أرسلك إلى حيث لقيت حتفك — إن ذاك القائد بعينه الذي تمنيت غير مرة لو كنت إياه وكان إياك ، يرفع اليوم يده ليحيّي رفاتك . ويمشي وراءك ، لا أنت وراءه ، كأنّك القائد وهو الجندي .

فماذا عساه يرى وهو لا ينظر يمنة ولا يسرة ؟ وماذا عساه يسمع ؟

أيسمع دندنة الرصاص ، وزئير المدافع ، وزفير الجرحى ، وأنين المحتضرين ؟ أم يسمع تصفيق المهللين له بالنصر والمهنئين إياه بعودته سالماً بعد الحرب ؟ هل تمرّ أمام عينيه أشباح الليالي السود التي قضاها بين الفوز والفشل ؟ أم خيالات الليالي البيض التي جاءته ببشرى النصر ؟ هل يرى الألوف التي قادها من الحياة إلى الموت — وأنت واحد منها — أم يرى الألوف التي عاد بها من الموت إلى الحياة وهو واحد منها ؟ أم لا يرى إلاّ أوسمة الشرف على صدره ، ولا يسمع إلاّ رنّة مهمازيه ؟

أم هو يمشي كما يمشي القواد الكبار ، إذا قضت اللياقة العسكرية أن يمشوا إن في جنازة أو في عرس أو في مهرجان ؟

وأولئك الأحبار الكبار الذين يرعون قطيع المسيح ويكرزون بإنجيل المسيح ؛ أولئك الخدام الأمناء الذين قال لهم سيدهم : «أحبوا مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم» فقالوا لك باسم سيّدهم : «ابغض مبغضيك ، والعن لاعنيك ، واذبح الذين يسيئون إليك .» أولئك الأحبار الأتقياء الذين كانوا بالأمس يبتهلون من أجل سلامتك وموت عدوك ، فلمّا متّ شكروا الله لأنّه استجاب طلباتهم . . . أولئك الأحبار الأجلاّء أنفسهم يمشون مع نعشك اليوم وكأنهم قد وجدوا فيك حلقة جديدة تربطهم بعرش الديّان . ألم يطلبوا الفوز لجنود مليكهم المظفر؟ أولَم يسمع الله

صلواتهم ؟ فقد فازت جنود الملك . وها هي عظامك المجردة من الجلد واللحم ، والّتي تجرّها الجياد المطهّمة ، تشهد بذلك . وعمّا قليل سيقف هؤلاء الأحبار فوق رمسك وأمام مذبح الرب ليصلّوا من أجل راحة نفسك ، وليشكروا الذي صُلب من أجلك ومن أجلهم ، لأنّه أهّلك لأن تموت في ميدان المجد . . . والشرف . . . والوطنيّة . . .

ليت شعري ، هل ترى الجماهير من حولك ما تراه ، أم تسمع ما تسمعه ؟

هل تراك تدب على يديك ورجليك ، أو تزحف على بطنك ، أو تتمرغ في الأوحال والغاز يحرق أحشاءك ، أو مطروحاً على جانب الطريق والقنابل قد بترت يديك ، أو أودت برجليك ؟ هل تراك الجماهير أمعاء ممزقة وجمجمة مطحونة ؟

هل ترى الجماهير الماشية من حولك جماهير الأرواح والأشباح المرفرفة فوق نعشك ؟ — هي أرواح رفاقك في الحرب الذين ساروا معك حتّى النهاية . رفاقك من جنسك ، ورفاقك من غير جنسك . هي أشباح أعدائك الذين ساقهم إلى الموت ما ساقك والذين ما عرفوك في الحياة فأبغضوك وقتلوك ، لكنّهم رافقوك في الموت فصالحوك وأحبّوك .

هل تسمع الجماهيرُ حولك تلك الأرواحَ والأشباحَ تهمس في أذنك كلمات المحبة والأخوّة ؟

ليت شعري ، هل ترى الجماهير الماشية من حولك ما تراه ، أم تسمع ما تسمعه ؟

* * *

وأنتَ من أنت يا أخي المجهول ؟

أعامل في المناجم تحت الأرض ، أم سائق عربات فوق الأرض ؟ أخادم في مطعم ، أم صاحب حرفة ، أم صاحب متجر ؟ أفلاّح أكل خبزه بعرق جبينه ، أم شريف أكل خبزه بعرق جبين سواه ؟

أطالبُ علم ، أم طالب سلطة ، أم طالب جاه ، أم طالب شهرة ؟

ألَبستَ البزّة الجنديّة وتقلدت الحربة والبندقيّة طوع إرادتك أم قسر إرادتك ؟

أقدّمتَ نفسك شهيداً للحقّ ، أم قدّمك سواك شهيداً للباطل ؟

أفديتَ بروحك المظلوم ، أم فدى الظالم روحه بروحك ؟

أغسلت بدمك خطيئة الأجداد ، أم كتبت بدمك لعنة للأجداد والأحفاد ؟

وعندما اخترقَتْ تلك الرصاصة صدرك ، أو مزّقت تلك الشظية أمعاءك ، أأطبقتَ عينيك وفي قلبك حلاوة الاستشهاد ، أم مرارة النقمة ؟

أعانقتَ الموت وفي روحك ظمأ إلى الحياة ، أم ودعت الحياة وفي روحك شوق إلى الموت ؟

أقبّلتَ أمّك الأرض عندما هويت إليها وقلت : « أماه ! من رحمك وإلى رحمك » ؟ أم صوّبتَ آخرَ شعاع في عينيك إلى السماء وقلت : « ربّاه من نورك وإلى نورك » ؟ أم لعنت الأرض وما عليها ومن عليها ؛ ولعنت السماء وما فيها ومن فيها ، لأنهما ما جادتا عليك بالحياة إلا لتسترجعاها منك ؟

بالله كيف لفظت آخر نحب من أنحابك ، يا أخي المجهول؟

لقد شاءت بلادك أن تكرّمك وترفعك في الموت بعدما أهانتك وخفضتك في الحياة ، وسلبتك الحياة لتبقى لها حياتها .

وكيف ترفعك بلادك إلاّ بدفنها لك مع مشاهير البلاد ؟ أم كيف تكرمك بلادك إلا بوضعها لعظامك بجوار عظام أبطالها وأعلامها ؟

وما شرف الرقاد مع الملوك والأبطال والأعلام بالشرف الذي يستهان به يا أخي .

لذلك جاؤوا بك من الأرض التي امتصّت آخر قطرة من دمك ، ومن الحفرة التي نهش دودها آخر سريدة من لحمك وجلدك ، ليضجعوك في أرض لا تراب فيها ولا دود . وإن كان فيها تراب فهو تراب شريف لأنّه لامس هامات الملوك . وإن كان فيها دود فهو دود نبيل لأنه تغذى بلحوم النبلاء ! . .

إن الحفرة التي اقتبلت بقاياك في ساحة القتال لم تك إلاّ حفرة لا يميّزها من ألوف الحفر بجانبها شيء . وما كان أوحشها وأضيقها وأبردها من حفرة ! — إذا بكت السّماء تسرّبت إليك دموعها وبللتك . وإذا أشرقت الشمس تغلغلت حرارتها في التراب من فوقك فجففته وجففتك . وإذا هبت الريح تمايلت الأشجار عن جانبيك والتفّت جذورها حول عظامك كالأفاعي .

وإذا أصبح الصبح قامت الأطيار من فوقك تقلق راحتك بأغاريدها . وإذا أقبل الليل ، أقبلت وحوش الليل تزعج سكينتك بعوائها .

لا مجير لك ولا سمير ، ولا جار إلاّ صفوف عديدة من أجداث رفاقك المجهولين وغير المجهولين .

أما الحفرة التي ستقتبل اليوم ما بقي من بقاياك فهي حفرة ولا كالحفر — أرضها من المرمر ، وجدرانها من المرمر ، وسقفها من المرمر .

والنعش الذي سيحتفظ بما بقي من بقاياك ، نعش ولا كالنعوش — قعره من اللجين الخالص ، وجوانبه من اللجين الخالص ، وغطاؤه من اللجين الخالص .

والرقعة فوق رمسك التي ستخبر الأجيال الآتية عن ساكن الرمس لن تكون من الخشب ، بل من الذهب الإبريز .

والقبّة فوق رأسك لن تكون قبّة مرصّعة بالنّجوم ، مفضضة بالقمر ، مذهبة بالشمس ، موشاة بالسحاب ؛ بل قبّة مرصعة بالفسيفساء ، مفضضة بالكهرباء ، مذهبة بماء الذهب ، موشاة برسوم لأشهر الرسامين . ستحميك هذه القبّة من دموع السماء ، ومن حرارة الشمس ، ومن ولولة الرّياح . وعندما يصبح الصباح لن تقلق راحتك أغاريد الطيور . وعندما يُقبل الليل لن يزعج سكينتك عواء وحوش الليل . وعندما تشتاق نفسك السَّمَر ، فسُمّارك ملوك لا جنود . وعندما تطلب جاراً فجيرانك قوّاد عظام ووزراء كبار — لا قبور تسكنها عظام جنود مجهولين مثلك . . .

إن ما تخلعه عليك أمّتك من الشرف يا أخي ، لشرف لا شكّ عزيز ورفيع .

فهل أنت قادرٌ لأمّتك صنيعها من أجلك ؟

* * *

ها مشت خلفك الملوك وأبناء الملوك وحاشيات الملوك . وعمّا قليل ستستقر عظامك البالية الباردة في مقرّ الفخر والشرف . وسيقوم من الجمع من يبيّن لك عظيم امتنان الأمّة لك — بل امتنان الإنسانية بأسرها — لأنّك قدّمتَ حياتك من أجل خير الأمّة بل خير الإنسانيّة بأسرها . ثم يؤديك بلسان الأمّة — بل بلسان الإنسانيّة — ثمن ما دفعته في سبيل الأمّة ،

وفي سبيل الإنسانيّة . وذلك الثمن هو مرقد لعظامك بين عظام الأبطال والأعلام ! . .

فبربّكِ أيّتها العظام الباردة ، لو عادت إليكِ الحياة فماذا عساك تفعلين ؟

بحقّك يا أخي المجهول ، لو عاد إليك النطق فماذا عساك تقول ؟

أكنتَ تخطب في هذه الجماهير بصوت مرتجف هكذا :

« أيها المليك العظيم ، وأيتها المليكة المعظمة . وأيها الأمراء ، والأحبار والأعيان والقوّاد والوزراء .

« يا بني أمّتي ! ويا بناتِ أمّتي ! والله لتخنقني العبرات وتسحرني هيبة هذا المشهد العظيم . أسلطان البلاد يمشي في جنازة أحقر واحد من رعيته .

« وأعيان البلاد يشيعون إلى القبر سوقيّاً ما كان يجسر أن يرفع إليهم بصره .

« وأحبار البلاد يصلّون من أجل روح فلاّح ما كان يستحق أن يفكّ لأحدهم حذاءه .

« ووزراء البلاد يتركون مهام البلاد ليسيروا خلف نعش واحد من الملايين الذين يسهرون على حفظ حقوقهم وتدبير شؤونهم .

« ونسوة البلاد ورجال البلاد ، من تجار معتبرين ، وأساتذة

ومحامين ، وعلماء وفنيّين ، يغادرون معاقلهم ومكاتبهم ومدارسهم ليودعوا جنديّاً حقيراً مجهولاً الوداع الأخير ؟ !

« إن هذا لشرف ما حلمت به في الحياة ولا خطر ببالي في الموت . ومن أنا لأستأهل كل هذا المجد ! من أنا لتنام عظامي نومتها الأبدية بجانب عظام أعلام بلادي ؟ ما أنا أيها الأسياد إلاّ نفر صغير حقير . عشت ولم آتِ بعمل كبير . ومتّ ولم آتِ بعمل كبير . عشت مجهولاً ومتّ مجهولاً .

« كنت أسمع في حياتي بالملك فأتمنى لو أراه ولو عن بعد فرسخ . وبالوزراء فأشتهي لو يتاح لي أن أشاهد وزيراً عن كثب . والآن يمشي معي الملك والوزير . فبأي لسان أشكر جلالة الملك ، وبأي لسان أشكر معالي الوزير ؟

« إنّه لشرف ما بعده من شرف، ولمجد لا يضاهيه مجد أن يتنازل مليك البلاد ليسير في جنازتي ، وأن يتعطّف أمراء بلادي ليشيّعوا رفاتي إلى القبر ، وأن تدفنّي بلادي في مدفن يرقد فيه المجد والشرف الأثيل .

« فشكراً لك يا مليكي العظيم . وشكراً لكم أيها الأمراء والوزراء والأحبار والأعيان . وشكراً لكم يا بني أمّتي ، ويا بنات أمّتي . فلن أنسى جميلكم أبد الدهر . »

أم كنتَ تخاطبهم هكذا :

« إن ما تبدونه نحوي ونحو رفاقي من الإكرام لمما يجعلني آسف لأني لم أمت من أجلكم إلا ميتة واحدة . أجل . إننا أرقنا دماءنا في ساحة المجد والشرف ، لكننا لم نأتِ إلا الواجب المقدّس . فأمّة تقدّر الجميل كما تقدرونه أنتم لأمّة يلذ من أجلها الموت ألف مرّة .

« لقد دعوتمونا لندرأ الضّيم عنكم بأرواحنا فدرأناه . ولا شكّ عندي أنّه لو أُتيح لكم أن تدافعوا عن شرف هذه الأمّة بأرواحكم ، كما أُتيح لنا ، لما تردّدتم لحظة واحدة . ولو دعتكم المدنيّة لتناضلوا عن كنوزها ، كما دعتنا ، للبّيتم دعوتها صغيركم وكبيركم ، أميركم وحقيركم ، غنيّكم وفقيركم . ولو نادتكم الإنسانيّة بلسان ضعفائها وبؤسائها ومظلوميها لهرولتم إلى السلاح كما هرولنا إلى السلاح ، ولخضتم غمار الحرب كما خضنا غمار الحرب ، ولاشتريتم سلامة هذه الأمّة وسلامة العالم بدمائكم ، كما اشتريناها بدمائنا . فالفضل للظروف وليس لنا .

« لكنّكم كريمو المحتد ، وكرم محتدكم أبى عليكم إلا أن تُظهروا امتنانكم بتشريفكم واحداً منّا بمثل هذه الجنازة التي لم ينل مثلها ملك ولا قائد ولا وزير . فقبور رفاقي اليوم ألسنة تنطق بشكركم وتهتف معي : ليحي الملك ! لتحي الأمّة التي تعرف الجميل ! لتحيَ الإنسانيّة ! »

أم كنت تخطب فيهم هكذا :

« أما كفاكم تهكماً أيها القوم ؟ حتّام تخدعون وتنخدعون . وتموّهون وتضلّلون . وتنطقون بما لا تفقهون ولا تؤمنون ؟

« لقد مشيت على ظهر أرضكم ثلاثين عاماً ، فما عرفتم أني على وجه الأرض . ومتّ من أجلكم وما دريتم بموتي . كنت آمناً مع أهلي في مزرعتي . وكنتم آمنين مع أهلكم في مدنكم وقصوركم ، فقلتم لي :

« إن البلاد في خطر عظيم . والعدوّ على الأبواب . فاذهب واجعل من صدرك ترساً لصدّ رصاص العدوّ . إن عدوّنا لعدوّ عاتٍ قهّار ينوي لبلادنا الدمار ، ولنسائنا العار ، ولحريتنا الموت ، ولمدنيتنا الفناء . إن عدوّنا عدوّ ظالم مستبد يرمي إلى استعباد كل الشعوب لسلطته القاسية . ونحن قوم نعشق الحرية ، ونعبد الحق ، ونقدس المدنيّة ، ونشفق على البائس والضعيف . فكيف نرضى أن تهان الحريّة ، ويداس الحق ، وتدنّس المدنيّة ، ويُسحق الضعيف والبائس ونحن في قيد الحياة ؟ إن ذلك لعار لا يطاق . فالموت ولا العار ! »

« فصدقت ما قلتم ، وعملت بما رأيتم . فجعلت من صدري ترساً ومن عظامي سوراً . فأخفق العدوّ وارتدّ عنكم مكسوراً ذليلاً .

« وها قد مرّ عامان وأنتم أسياد العالم — لا عدوّ لكم فيه ولا

مزاحم . فماذا فعلتم بالعالم ؟ أأعطيتم المظلوم حقّه ، ورددتم إلى العبد حريته ، وأنصفتم الضعيف ، وآسيتم جروح البائس ؟ لا وربّي — فالمظلوم لا يزال مظلوماً ، والعبد عبداً ، والضعيف ضعيفاً ، والبائس بائساً .

« وما الفرق بينكم وبين عدوكم إلاّ أنّه كان يطمح إلى شيء تطمحون وراءه أنتم . فدعاكم إلى البراز قبل أن دعوتموه. فبارزتموه وأرديتموه فكنتم الظافرين وكانت لكم حصة الظافرين.

« وحصة الظافرين شعوب كثيرة ، وأراضٍ فسيحة ، وموانىء جميلة ، وتجارة رائجة . اقترعتم عليها وقسمتموها فيما بينكم باسم الحق والعدل والحرية . فيا لله من ألسنة تنطق بالعدل والحق والحريّة وليس محركها إلاّ الجشع والطمع وحب السلطة.

« أما كفاكم أنّكم أرسلتم ملايين الرجال إلى حتوفهم قبل الأوان حتى جئتم تسخرون بهم اليوم وهم عنكم بعيدون في عالم لا تعرفونه ؟

« أوَليس احتفالكم هذا بجنازتي سخرية ؟ لقد خدعتموني في الحياة فانخدعت . أما في الموت فلا تخدعون إلا أنفسكم .

« علامَ هذه الضجة وعلامَ هذه الجماهير ، وما شأن الملك وشأن وزراء الملك وشأن أعوان الملك من عظام جندي عاش مجهولاً ومات مجهولاً ؟ فلا خطاباتكم ولا صلواتكم ولا احتفالاتكم تردّني إلى الحياة .

« أم تظنون أنكم بذلك تكفّرون عن ذنب اقترفتموه نحوي؟ فعبثاً تكفّرون إذ انني ، حيث أنا اليوم ، لا أطلب كفّارة عن ذنب ولا أحمل في قلبي حقداً ضد أحد . حتّى إن أعدائي الذين صرعوني بالأمس قد أصبحوا اليوم إخواناً وأعواناً لي .

« فعلامَ تضجون ؟

« أم تحسبون أنكم تكرمون ذكري بتشريف رفاتي ؟ فهل أنتم تكرمون إلا ذواتكم . وهل أنا في حاجة إلى تكريمكم ؟

« لقد رحلت عنكم إلى عالم لا رفيع فيه ولا وضيع ، ولا ملك ولا مملوك ؛ لذلك فلا حضور ملككم هذه الجنازة يشرّفني ، ولا قرب وزرائكم وقوّادكم وأحباركم يرفعني . ولا منظر جماهيركم يطربني ، ولا دفن عظامي في مدفن ملوككم وأعيانكم يمجدني .

« فعلامَ نقلتم عظامي من الأرض التي اقتبلَتْها أولاً إلى أرض غريبة عنها ؟

« إذا كان في الجوار من شرف فجوار رفاقي الذين قضوا معي في الحرب لأشرف لعظامي من جوار الملوك .

« علامَ نقلتموني من تربة كان لِنبتها من عظامي بعض الغذاء إلى تربة لا نبت فيها تغذيه عظامي ؟

« علامَ نقلتموني من جدث تقبّله الشمس ، وتغسله السحب ، وتحجّ إليه الرياح ، لتواروني جدثاً لا تراه الشمس

ولا تمرّ فوقه السحب ، ولا تجد إليه الريح سبيلاً ؟

« لله من قلوبكم ما أقساها ، ومن عيونكم ما أشدّ عماها . فلولا قساوتكم لما فعلتم بي ما أنتم فاعلون . ولولا عماوتكم لأبصرتم أنكم بتكريمكم للموتى مثل هذا التكريم إنّما أنتم عليهم تتهكمون .

« وسيجمعنا يوم تدركون فيه قساوتكم وتبصرون عماوتكم . »

* * *

بربك أيتها العظام الباردة ، لو عادت إليك الحياة ، فماذا عساك تفعلين ؟

وبحقّك يا أخي المجهول ، لو عاد إليك النطق ، فماذا عساك تقول ؟

أنت الإنسانيّة

أنت الإنسانيّة بكاملها .

أنت ألِفها وياؤها . منك تتفجّر ينابيعها . وإليك تجري . وفيك تصبّ .

أنت حاكمها ومحكومها . وظالمها ومظلومها . وهادمها ومهدومها .

أنت واهبها وموهوبها . وناكبها ومنكوبها . وصالبها ومصلوبها .

أنت فقيرها وغنيها . وضعيفها وقويها . وظاهرها وخفيها .

أنت جلاّدها ومجلودها . وناقدها ومنقودها . وحاسدها ومحسودها .

أنت رفيعها وخسيسها . وأثيمها وقدّيسها . وملاكها وإبليسها .

أنت ابن كلّ أبٍ وأمّ . وأبو كل أخ وأخت . وأنا كائناً من كنت ، لا مهرب لي منك . ولا لك مني . لأنّك أنا . وأنا أنت وكلانا الإنسانيّة بأسرها .

لولاك لما كنتُ كما أنا . ولولاي لما كنتَ كما أنت .

ولولانا لما كان سوانا كما هو .

لولا الذين سبقونا لما كنّا ، ولولانا لما كان في رحم الزمان إنسان .

أفي قلب جارك سعادة ؟ — ألا فاغتبط بسعادته لأن في نسيجها خيطاً من نسج روحك . وما همّك أرأت عين جارك ذلك الخيط أم لم ترَه . فالعين التي ترى كلّ شيء تراه .

أفي قلب جارك حرقة ؟ — فليحترق قلبك بها لأن في نارها شرارةً من موقد بغضك وإهمالك .

أفي عين جارك دمعة ؟ — فلتدمع بها عينك لأن فيها ذرّة من ملح قساوتك .

أعلى وجه جارك بسمة ؟ — فليبسم لها وجهك لأن في حلاوتها شعاعاً من نور محبتك .

أجارك في السجن لجريمة اقترفها ؟ — ألا فأرسل بعضاً من قلبك معه إلى السجن لأنّك شريكه في جريمته وإن لم تحاكمْك السلطة المشروعة بشرائعِها ولم يقضِ بسجنك رجل مثلك .

* * *

أمس رأيتك ترقص وتصيح في الناس : « صفّقوا ! صفّقوا ! » ألست ترى أن الحياة ابجذلة فيك لا ترقص إلاّ إذا صفّق لها جذل الحياة في سواك . فما بالك لا تصفّق عندما يرقص الغير..؟

أمس سمعتك تشكو وتنوح : « اسمعوني أيها الناس . أنصفوني أيها الناس . فأنا مظلوم . »

وممّن تودّ أن ينصفك الناس إلاّ من أنفسهم ؟ فإذا كنت تشكو الناس للناس فعلامَ لا تصغي لشكواهم منك وتنصفهم من نفسك ؟

أمس رأيتك تحصي أرباحك . وتربّت نفسك معجباً بدهائك وما سمعتك تقول : « هذا ما أكسبنيه الناس . » واليوم رأيتك تحسب خسائرك لاعناً دهاء غيرك . وسمعتك تقول : « هذا ما سلبنيه الناس . » أولا تخجل من أن تكون في الحياة شريكاً « مضارباً » ؟

* * *

أنت الإنسانية بكاملها عرفت ذلك أم جهلته . وأنا صورتك ومثالك . فأين تهرب مني إلاّ إذا هربتَ من نفسك ؟

وإن أنت هربت من نفسك – فمن أنت ؟

المزابـــل

مزجتُ أنفاسي بأنفاسها ، ولصقتُ بصدرها صدري ، فدقّ قلبها في قلبي ، ومشت روحها في روحي .

لله صدرها ما أرحبه ، ولهاثها ما أطيبه ، وقلبها ما أرقّه وأعجبه !

هي البتول التي ما مسّها دنس ، ولا شابها غش قط . ما برحت من البدء حبلى ، ومن البدء ما فتئت تولّد .

خرجتُ إليها اليوم — إلى الأرض أمي وأم كل عجيبة — فألفيتها ساكنة صامتة ، شأن كل بتول طهور حبلى بروح الله .

جلست في منتصف حقل من الحقول لملمت الشمس عنه آخر ذرّة من الثلج فبان في أرجائه كُوَمٌ كُوَم . كل كومة مزبلة . وكل مزبلة عالم شاسع واسع ينطوي على أسرار كلّ العوالم . من ذا الذي يدرك ما فيها ؟

أعشاب وبقول ، وبقول وأعشاب قضمتها بهائم جائعة ، فتغذت ببعضها ، ونبذت منها ما زاد عن حاجتها ، فكان الزبل ، وكانت المزابل

هذا حدّ ما يراه البشر . ولا يرون أن كل عشبة أو بقلة من تلك الأعشاب والبقول شهدت فجر الخليقة . فهي ذرية البزور عينها التي ألبست التّرابَ البكر أول حلة خضراء .

بزرة صغيرة ، حقيرة تكاد العين لا تبصرها . وُجِدَت من البدء خضراء الحشا . ولا تزال خضراء الحشا . وما كانت لِتُلحَد وتنهض من لحدها عاماً بعد عام ، وقرناً تلو قرن ، لو لم يكن كل ما في الكون من خفي ومنظور خادماً لها في كلّ لحظة من وجودها . فالشمس والقمر ، والضباب والمطر ، والبحر وما فيه ، والسماء وما فيها ، والأرض وما عليها — كلها يعمل يداً واحدة على حفظ تلك البزرة الصغيرة الحقيرة في لحدها وإنهاضها في كل عام عشبة خضراء هيفاء .

تقضمها البقرة ، فيتحول بعضها في البقرة لحماً وشحماً ، ودماً أحمر ، وعظاماً صلبة ، ولبناً أبيض وزبدة صفراء . وبعضها الآخر تفرزه البقرة زبلاً .

يأكل الناس اللحم والشحم والزبدة ، ويشربون اللبن وينعمون ويحيون . أما الزبل فيهربون منه ويسدّون أنوفهم عنه . فهو عندهم عنوان الفساد ، ومنتهى القذارة والحقارة .

« هو زبّال » — « بيته مزبلة » — « هم زبالة القوم » — هذه بعض الشتائم التي تتبادلها ألسنة البشر الطاهرة !

أما الأرض أمّي وأم كل عجيبة — تلك البتول الحامل

الوالدة – فلا تعرف الفساد ولا القذارة والحقارة ، ولا الشتيمة والنميمة ، بل تفتح صدرها الرحب لكل المزابل على السواء ، فتجعل القذارة طهارة ، والفساد صلاحاً ، والموت حياة ، والشتيمة صلاة .

لله ما أقدسها وأجلّها وهي تمتصّ تلك السوائل المتسربة من المزابل بلون النبيذ . تمتصّها هادئة آمنة ساكنة ، فلا تثمل أو تترنّح ، ولا تعربد أو تتبجّح . وفي قلبها الأسود الحنون ربوات من الجذور والبزور تنتعش بعصير المزابل ، وتتململ لتدرج غداً ، كل واحدة في سبيلها ، لملاقاة الشمس .

غداً تنبثق تلك البزور زنبقاً وبنفسجاً ووردا ، فيشتمّها الناس ويقولون – ما أطيب ! أو بقولاً طريّة فيأكلها الناس ويقولون – ما أشهى ! أو ثماراً شهية فيقطفها الناس ويقولون – ما أحلى وما أجمل !

غداً تزدان بها موائد الملوك والصعاليك . وتصير لحماً ودماً في جسوم الأغنياء والفقراء . وينسى الملوك والصعاليك ، والأغنياء والفقراء أن هذه الثمار والبقول بناتُ تلك المزابل .

في الحقول مزابل . وفي البشرية مزابل .

في كل قرية مزبلة . وفي كل مدينة مزابل . ينبذها الناس ويتباعدون عنها وهي سماد الحياة في حياتهم . هي منهم وإليهم . نظير ما العشبة الصغيرة الحقيرة من الأرض وإليها .

يمرّ الناس بقصر من القصور فيهتفون – ما أجمل وما أبهى ! يحيطون صاحب القصر بالإجلال ، فيطأطئون أمامه الرؤوس ، ويعفـّرون الوجوه ، ويحنون الرُّكب. أما الأيدي التي اقتلعت الصخر من صدر الأرض ، ونحتته حجارة مربّعة أو مستطيلة أو مستديرة ورتّبته حجراً فوق حجر .

والأيدي التي أخذت من الغاب أشجارها فنشرتها أبواباً وشبابيك وسقوفاً .

والأيدي التي زيّنت السقوف والجدران بالدهان .

والأيدي التي نسجت الطنافس ، وسترت عري ساكني القصر بالخز والأطالس . تلك الأيدي كانت نظيفة وشريفة يوم كانت تشيد من عظام مبعثرة هيكلاً بهجاً . أما بعد أن اكتمل الهيكل فقد عادت تلك الأيدي زبالة وعاد أصحابها مزابل . وأقفلت دونها أبواب القصر الذي بنته أمس . وحُرّم حتى على خيالها أن يمرّ على الأبواب .

الأيدي التي تبني فيسكن غيرها ما تبنيه ، وتنسج فيلبس غيرها ما تنسجه ، وتزرع وتحصد فيأكل غيرها ما تحصده ، وتستخرج الفحم والمعادن والحجارة الكريمة من جوف الأرض فيدفأ غيرها بالفحم ويستعبدها بالمعادن والحجارة الكريمة – تلك الأيدي – وما أكثرها – مزابل بشرية يشمخ عليها الذين يحيون بكدّها وجناها ، ويكفّون الأبصار عنها ، ويقلبون

الشفاه دونها ، وهم أحوج إليها من سمكة إلى الماء . فيا للغرور ، ويا للعمى !

يسنّ الناس شرائعهم ويدوسونها ، فيُزجّ بالقليل منهم في السجون ويبقى الكثير خارجاً . أما الذين في السجون فيدمغون بدمغة الخزي والعار . وما العار عارهم ولا الخزي خزيهم بل عار كل من سبقهم ومن رافقهم من الناس وخزيهم . أليس أن كل ما في الخليقة منذ بدئها قد تعاضد ليجعلني كما أنا وليجعل كل من في السجن كما هو ؟

هم في السجون ، أما أعمالهم وأقوالهم وأهواؤهم فطليقة وحيّة بين الناس تريهم في كل لحظة فساد شرائعهم وفسادهم ، ويا ليتهم يبصرون .

لولا الذين في السجون ما عرف الناس يوماً حقهم من باطلهم . وضعفهم من قوتهم . وصلاحهم من طلاحهم . هم في أعين البشر مزابل بشرية . أما في عين الحياة التي لا تعرف فساداً ، فهم من سماد الحياة .

وبنات البشر اللواتي يعانقهنّ أبناء البشر في سرهم ويهربون منهنّ في علانيتهم — هنّ كذلك مزابل بشريّة .

ما أكثر المزابل البشرية وما أحقرها في نظر البشر ، وما أقدسها وأجلّها في عين الحياة !

في الحقول مزابل ، وفي الناس مزابل . والفرق بين الحقول والناس أن الحقول لا تعرف الغش والفساد ، فلا تكبر على المزابل ولا تهرب منها ، بل تفتح لها صدورها الرحبة لأنّ مزابلها منها وإليها ، فهي بعض منها . وبعض الحقول لا يستحيي ببعضها الآخر . أما الناس فيهربون من مزابلهم ، ومزابلهم سماد الحياة فيهم .

الناس سماد الناس . فما أجهلهم يهربون من أنفسهم ، وما أعماهم يكرّمون النبتة ويرذلون التّربة !

مثلث الحياة

قوتان تتولّد منهما ثالثة : في الأفلاك هما قوّتا الجذب والدفع . ومنهما الحركة الدائمة .

وفي المسكونة بأسرها ، هما الانفصام والانضمام . أو ما ندعوه الموت والحياة . ونتاجهما هو كل ما نراه من الكون في الدقيقة التي نحن فيها .

وفي الكهرباء هما قوّة السلب والإيجاب . ومنهما ينبثق النور والحرارة .

وفي حياة الإنسان هما الخير والشرّ . أو ما تعوّدنا أن ندعوه خيراً وشرّاً . ومنهما البشرية . فقبل أن تأكل حواء من الشجرة المحرمة وتطعم زوجها ، أي قبل أن يعرفا « الخير والشرّ » ، كانا عقيمين ولا ذرية .

آدم وحواء ومنهما قايين — الوالد والوالدة والمولود ثالثهما .

قوتان تتولّد منهما ثالثة . ولا تكتمل الحياة إلا إذا اكتملت فيها هذه القوى الثلاث . فهي كالمثلث المتساوي الأضلاع . إذا فُقد منه ضلع واحد فُقد كلّه . وإذا اختلّ

منه ضلع واحد اختلت مساواته وتشوّه كماله الهندسيّ .

الوالد والوالدة والمولود — هؤلاء هم مثلث الحياة البشرية . وهم أبداً متعادلون في الجوهر وإن اختلفوا في المظهر . أمّا الجوهر فهو أن للواحد منهم ما للآخر من الأهميّة في تجديد الحياة وحفظها . لذلك فقيمة الواحد لا تقلّ عن قيمة الآخر ولا تربي عليها . وأما المظهر فهو التباين الذي رتبه الخالق في الوظيفة التي انتدب كلاً منهم للقيام بها ليتمّ بالحياة وتتم به . فما دامت البشريّة لا تقوم بالرجل وحده ، ولا بالمرأة وحدها ، ولا بالطفل وحده ، فكيف لبشر أيّاً كان أن يفضل الرجل على المرأة ، أو المرأة على الرجل ؟ ذلك أبعد من تصوراتي وأعمق من مداركي .

صعب عليّ كذلك أن أفهم القصد ممّا يدعونه « الحركة النسائيّة » التي أراها قائمة على وهم . وذلك الوهم هو أن الرجل حر والمرأة عبدة . وأنّه ينال من الحياة أكثر ممّا تنال . وأنّه القوي وهي الضعيفة . فلو صحّ ذلك لاختلّ توازن الوجود ولاختلط حابله بنابله . غير أن الطبيعة جعلت بين ما تتطلبه من الرجل وما تتطلبه من المرأة ، وبين ما تمنحه وتمنحها توازناً يفوق بدقّته كل إدراك . فحيثما أجزلت العطاء للرجل وتباخلت على المرأة تراها في حالة أخرى قد عكست الآية لتحفظ التوازن . وتلك خطتها مع الطفل . فهي تأتي به إلى الوجود عرياً من

كل سلاح . فلا إدراك ولا قوّة . لكنها تستعير له قوة من قوّة والديه وإدراكاً من إدراكهما . وفوق ذلك تحيطه بعطف خارق من كل بشر . حتّى من كل حيوان . وبذلك تحفظ التوازن بينه وبين والديه فيبقى مثلث الحياة متساوي الأضلاع .

لم تكن المرأة في دور من أدوار التاريخ أقلّ حظّاً أو حرية من الرجل ، ولا أحطّ منه ، ولا هي كذلك اليوم . فهي إن تكن عبدة فلأن الرجل عبد . أو يكن الرجل عبداً فلأنها عبدة . إذ ان ما يرفع الرجل يرفع المرأة . وما يحطها يحطّه . وما يحرره يحرّرها . وما يقيّدها يقيده . فبالسلاسل التي يكبل يديها يكبل يديه . وبالقناع الذي يقنع وجهها يقنع روحه .

ما ظلم بشر بشراً إلاّ كان هو المظلوم أوّلاً بظلمه . لا ولا استعبد رجل امرأة إلاّ جعل نفسه عبداً قبل أن يجعلها عبدة .

الرجل الحرّ لا يزاوج عبدة . وإذا زاوجها فإمّا يحرّرها بحريته . وإمّا تستعبده بعبوديتها . لا ولا يمكن حرّاً أن يكون أباً أو أخاً لعبدة . فمثلث الحياة لا يعرف الخلل لأنّه مظهر نظامٍ لا خلل فيه . فحيثما استطال ضلع من أضلاعه استطال الاثنان الآخران به . وحيثما قصر ضلع قصر الاثنان الباقيان بقصره . ومن يرى في مثلث الحياة خللاً أو نقصاً فلحسور في بصره أو قصر في إدراكه .

إن تكن المرأة جاهلة فلأنّ الرجل جاهل . فعليها حين

تشفق على جهلها أن تشفق على جهله . فلا نفع لها من الانتقام . ولا بركة في الحركات النسائية تجعل الرجل هدفاً لنقمتها ؛ بل لا بركة في أية حركة كانت تفصل بين الجنسين وتجعل منهما خصمين . لأنها بذلك تصرف قوى ثمينة عن العمل في الحقل الوحيد الذي نتاجه يعود بالخير على الاثنين . وهو حقل التعاون لا التخاصم . فلا حرية للمرأة بغير حرية الرجل ، ولا سعادة له بغير سعادتها . فلا هي تتمّ إلا به ، ولا هو يتم إلا بها .

يستحيل عليه أن يسبقها في مرحلة من المراحل ، وعليها أن تسبقه . ويستحيل على الاثنين أن يسبقا الطفل . ولو شُبّهت البشرية بمركبة تجرها ثلاثة جياد لكان الرجل والمرأة والطفل بمثابة تلك الجياد . لا يدرك الواحد منها عطفةً من الطريق إلاّ يكون الآخران قد أدركاها معه في الدقيقة عينها .

الرجل والمرأة والطفل – ثلاثة يسيرون أبداً في سبيل واحد بخطوة واحدة . فلا قائد ولا مقود . ولا رئيس ولا مرؤوس .

ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة .

الواحة الحيّة

(رسالة إلى مجلة «الخدر» بالشويفات — لبنان)

بتاريخ تموز سنة ١٩٢٢

سيدتي صاحبة مجلة «الخدر»

سلام عليك . وبعد فقد اصطدتني بشباكي . فكنتِ الخاسرة ، وكنتُ الكاسب .

أرسلتِ تستكتبيني لمجلتك فلم تدعي لي سبيلاً للاعتذار . إذ اتخذتِ بيتاً من أبياتي شاهداً عليّ . كأنّك تقولين : «وأيّ عذر لك وأنت الذي سمعناه يبتهل :

واجعل اللهم قلبي واحة تسقي القريب — والغريب ! لقد أجاب الله ابتهالكَ . فها نحن جئناك نستقي . ولسنا غرباء عنك ، وإن تناءت الديار ، بل نحن منك أقرب من وريدك . فاسقنا ! »

لو لم يكن في رسالتك إلاّ هذه البراعة في الطلب لما آنست من نفسي جرأة على ردها . فكيف بها وقد جاءتني مبطّنة بالشعور الحيّ ، ملحّفة بالآمال الفتية ، مجنحة بالأشواق إلى ما تصبو إليه الروح ولا يدركه الحسّ .

أسفت لأمر واحد فقط . وهو أن ذلك القلب الذي سمعته يبتهل إلى ربّه أن يجعلهُ « واحة تسقي القريب والغريب » لا يزال قارورة من الطين لا تبللها قطرة من ندى الحياة حتى تجففها ألف ريح سموم . لقد ابتهل ، ولا يزال يبتهل ، أن يرتوي ويروّي . وليت كل ابتهالٍ مجاب !

إنني عَطِش ، يا سيدتي ، مثلما أنت عطشى . وأفتش عن مناهل مثلما تفتّشين . والله يعلم أنني لا أقول ذلك تمسكناً أو تواضعاً . بل اعترافاً بما في القلب من قحط وجوع . وما في الروح من تجفف وتعطّش . وعندي أنّه إذا كان منّا من هو خليق بأن يُحسد فذاك أنتم ، معشر المتخلفين ، لا نحن . لأن لكم منهلاً عذباً تستقون منه ولا نَرِدهُ نحن إلا بالذكرى ، وفي الأحلام . أما ذاك المنهل فهو الشعب .

لست أعني بالشعب حكّامه ، ولا موظفيه ، ولا رؤساء أديانه ، ولا قضاته ومحاميه ، ولا أرباب صحافته وأولياء تجارته . بل أعني به ذلك المجموع الأصمّ الأبكم الذي قلمه المحراث ، ولسانه المنجل ، ومنبره الحقل ، وسامعوه السنابل والأشجار ، ومخدعه البيدر ، وقناديله النجوم . ذلك العدد غير المحدود الذي إذا تأفّفنا نحن من حرارة الشمس رفع وجهه نحو السماء هاتفاً : « تباركت شمسك يا ربّ التي تجعل الأرض صالحة لاقتبال الحبّة . والتي تنشط بالحبة من الموت إلى الحياة

لتجعلها لأجسامنا حياة . » وإذا تبرّمنا بالمطر خيفة أن تتبلل قبعة لنا جديدة ، أو يلوّث بالوحل حذاء لمّاع ، اقتبل المطر بقلب ضاحك وقال : « تبارك يا رب غيثك الذي يحوّل الأرض العابسة إلى مروج باسمة . »

إن هذا الشعب الأصمّ الذي يفهم ما تقول الأرض والسماء ، وتفهم السماء والأرض ما يقول ، لأفصح منّا ، وأعقل منّا ، وأقرب إلى الله منّا بما لا يقاس . إنّه يستقبل الفجر ساعياً وراء رزقه ورزق سواه من الأرض التي لا رزق إلا منها . ونحن نستقبل الفجر في أسرّتنا . نغطّ أحلاماً مزعجة . ثم نفيق والشمس قد ارتفعت قامات ونخرج من مخادعنا لنحصل على رزقنا بحيلة .

هو يغتسل سحابة نهاره بعرق العافية . ونحن إذا تصببت منّا قطرة عرق مسحناها في الحال بمنديل أبيض مخافة أن تفسد النشاء في « الطوق » الأبيض المكوي .

هو يتعطّر برائحة الأرض وممّا تولّده الأرض من الأزهار والأعشاب . ونحن بأنفاس المدنيّة الفاسدة ، وما تولده المدنيّة من المساحيق والأدهان والأطياب .

هو شريك الحياة المولدة في التوليد . يعرف سرّ التربة . وسرّ الحبّة . فيُعدّ التربة لاقتبال الحبّة في أوانها . ويلقي الحبّة في أوانها . ويسقيها في أوانها . ثم يحصدها في أوانها . أما نحن

فنشاطره خلاصة جناه دون أن نشاطره قوة التوليد .

هو يقرأ فصول السنة في كتاب الأرض والسماء . أمّا نحن ففي الروزنامة .

هو يعيش ليُحيي . ونحيا نحن لنميت — نُميت أنفسنا ونميت سوانا .

إن العجب كل العجب أن نرانا نترفع عن هذا الشعب ونبتعد عنه كما لو كان وباء وحمأة . بل نحن نحتقره ولا نحسبه بشيء ، وهو منّا كالجذور من الفروع والأغصان . بل كالتربة من الشجرة .

هذا الشعب ، يا سيدتي — شعبك وشعبي . شعب لبنان وسوريا ؛ هو مستودع كل قوانا الروحية .

هو الخزّان الذي إذا نضبت غدران وحينا عدنا إليه نستمد الوحي .

هو التربة التي إذا قاضت مراعينا عدنا إليها نلتمس قوت الحياة .

هو الضرع التي عندما تجف آمالنا نعود إليها نرضع الأمل . نحن منه وإليه . فهو كالأرض . كل ما عليها منها وإليها . في كل كوخ من أكواخه ألف رواية . وفي كل قبضة من الحب يطرحها على وجه الأرض ألف صلاة ليست صلواتنا في معابدنا إلاّ دندنة تجاهها وتمتمة . وفي كل ضربة من معوله

ألف قصيدة ، وفي كل رنّة لمنجله على حصباء الحقل ، وساق السنبلة ألف لحن وترنيمة إلهية .

قد تقولين : « لكنه جاهل ، راسف في قيود الأوهام لا يعرف من العالم إلا محراثه ومعوله ومنجله وحماره وثوره وأرضه . »

أجل ، إنّه لا يقرأ ولا يكتب . ولا ينظم الشعر على الأصول . ولا يعرف شيئاً عن آخر رأي في مذهب « دارون ». ولا يدري ما هي الاشتراكية أو الفوضوية أو البلشفية . ولا يعلم بُعد الشمس عن الأرض . ولا ما إذا كان المريخ آهلاً ببشر . وليس في إمكانه أن يسلك في مسالك السياسة العالميّة الحاضرة . ولا أن يتعرّج في معارج الحالة الاقتصادية . إنّه يجهل كل هذه الأمور وألوفاً من نوعها . لكنه ليس جاهلاً . لأنّه قابض بإيمانه على جوهر الحياة . فما همّه لو أعرض بفكره عن قشورها ؟

ومن ذا الذي يجسر أن يحتم بأنّه لو وضعتنا الحياة في كفة ميزانها — نحن الذين ندعي الفهم والمعرفة — ووضعت هذا الشعب « الجاهل » في الكفة الأخرى لا يكون هو الراجح ونحن الناقصين ؟

إن في هذا الشعب لقوّة روحية لا تسحقها قوّة جسدية . هي قوّة إيمانه المنبثقة من رحم الأرض ، والمتجدّدة بتجدد

الفصول . لذلك تتألّب عليه القرون فتأتيه بسلطة بعد سلطة . وبظالم إثر ظالم . وبشريعة تلو شريعة . وهو ثابت بإيمانه لا يتغير ، ولا يتزعزع ولا يتفكّك .

في كلّ يوم تعرض عليه الحياة أزياء جديدة فلا يترك محراثه ويهرول لاعتناقها ، بل يمتصّ منها جوهرها وينبذ قشورها ، ويظلّ سائراً في سبيله على مهل ، متكلاً على قوة ساعده ، معتصماً بعدل ربه ، ساكباً خلاصة اختباراته الروحيّة في أمثال هي خلاصة الحكمة . وناظماً عواطفه في مقاطع هي من الشعر لُبّه . لأنها ابنة البداهة والفطرة ، لا ابنة التصنع والتأنّق وحب المجد والشهرة . إذا عاكسته الأيام في مطمع أو مقصد قال : « نحن بالتفكير . والله بالتدبير . . » ولعمري إن في مثل هذا القول لخلاصة كل دين . وإذا شكا فمن حسرة في النفس :

« الله معك يا لابس الأزرق   الله يعين الـ في هواك مدبوق
يا حسرتي ما عدت مترجّي   الله لا يقطع رجا مخلوق . . .
يا حسرتي ما عدت مترجّي   لولا الحيا من الناس لَهيجّ
وزرعت نخله بعدها فجّه   والغيرجايي من ثمرها يذوق »

وإذا بكى واستبكى فللدمعة في القلب حراقة :

« يا حمامة اللي بالقفص طلي ارجعي
وإن نحت نوحي وإن بكيت ابكي معي »

إن مثقال ذرة من مثل هذا الشعر البسيط الصادر من القلب، ليوازي قنطاراً من الأبيات المرصوصة ، الكاملة بأوزانها وقوافيها ، التي يتحفنا بها شعراؤنا كل يوم . ولي أمنية ، لو مكّنتني الحياة من قضائها لاكتفيت بها دون سواها . وهي أن يتيسّر لي ، أو أن ييسر الله لسواي ، جمع مثل هذه « المطالع » أو « الموّالات » العاميّة في لبنان وسوريا ، مع ما هنالك من الأمثال الحكمية ، قبل أن تعبث بكلّها أو بأكثرها يد الأيّام ، وتقضي عليها « نهضاتنا » الحديثة المباركة . إن في هذه الآثار لكنوزاً خالدة . فحرام أن تكون لنا هذه الكنوز ، وأن نرانا واقفين على قارعة الطريق ، حيث يلتقي الغرب بالشرق ، باسطين يد المستعطي نحو الأوّل ورافعين يد النقمة فوق رأس الثاني .

إن القصائد المدفونة في صدر شعبك وشعبي ، يا سيدتي ، لم تُنظم بعد . والحكمة المخزونة في عقله وقلبه لا تزال عندنا سِفراً مختوماً . والقوة الروحية الكامنة في كل كيانه لم تتخذ لها هيكلاً منظوراً . حتى إنّه لو ولد لنا في كل يوم شاعر وفيلسوف ونبي — من اليوم حتى القيامة — لما نظموا كل ما في

الشعب من الشعر . ولا أظهروا كل ما فيه من الحكمة . ولا نطقوا بكل ما في كيانه من القوة الروحيّة .

هي ذي « الواحة » التي ماؤها لا ينضب . والغرس على جوانبها لا يذبل . فلنستقِ منها !

الانتحار

قصدت يوماً شاطىء البحر . وهناك جلست في ظلّ صخرة كبيرة بشكل صليب . وما ان جلست حتّى سمعت الصخرة تقول :

« ما أثقل الحياة ! فصول تتعاقب . وأجيال تتزاحم . والسماء هي هي . والأرض هي هي .

« لقد سئمتُ الشمس تطلع ثم تنزل . والقمر يتجوّف ثم يستدير . والنجوم تفتح عيونها في الليل وتغمضها في النهار . والأرض تحبل في الشتاء . وتلد في الربيع . وتنمي بنيها في الصيف . وتأكلهم في الخريف لتعود وتحبل بهم ثم تلدهم من جديد .

« سئمت الريح نافخة سمومها في عينيّ . والنسيم متنهداً حسراته في أذنيّ . والضباب ناشراً أكفانه حواليّ . والسحاب متقيّئاً أمعاءه عليّ . وهذه الطيور — طيور البحر والبر — لعمري إنها أوقح ما في الكون . فهي لا تخجل من أن تجعل قمة رأسي محطة لها في غدواتها وروحاتها . هناك تقيل . وهناك تتنازع وتتحابّ وتتزاوج . وتقيم مآتمها وأعراسها . ثم ترحل

تاركة لي أوساخها .

« وهذه الأشجار التي تضغط عليّ جذورها . وتلتفّ من حولي أغصانها . وتتناثر فوقي أوراقها — لله ما أحمقها في أفراحها . وأسخفها في أتراحها .

« إنها لحياة ضوضاء وشقاء . فليعلق بها من شاء من البُلْه والضعفاء . أمّا أنا فإني أوثر الفناء على مثل هذا البقاء . فابتلعيني أيتها اللجّة ! »

وعندها تململت الأرض قليلاً . وتثاءب البحر . فهوت الصخرة من شاهق علوّها إلى القاع . ومشت فوقها مواكب الأمواج .

* * *

وكان مساء . وكان صباح .

وكان أن خرجتُ يوماً إلى البحر أطلب دُرّه . فقصدت الشاطىء حيث كانت الصخرة . ومن هناك رميت بنفسي في الماء . وعمّا قليل وجدتني بجانب صخرة مصلّبة تكتنفها أوحال البحر وأليافه وتسرح حولها قطعان أسماكه . فالتفتّ وإذا في الألياف عناقيد من اللؤلؤ . وإذ دنوت لأقطفها سمعت الصخرة تقول :

« ما أثقل الحياة ! أوحال وألياف . وأسماك وأمواج . تروح وتأتي وهي هي . فالذي رأيته أمس أراه اليوم وسأراه

غداً . والذي سمعته أمس أسمعه الآن وسأسمعه إلى الأبد . فهل بعد هذا الضجر من ضجر !

« ليتني عمياء وخرساء وطرشاء . فما هذه الحياة إلا حياة ضوضاء وشقاء . لا يعلق بها إلا الضعفاء والبُلْه . فانتشلني أيها الفناء من مثل هذا البقاء ! »

وتململت الأرض قليلاً . فارتدّت أمواج البحر إلى الوراء . وتخلّت لليابسة عن بضعة أذرع من ميدانها . فانكشفت للشمس أوحال وأصداف وألياف وحجارة كثيرة . وبينها الصخرة المصلّبة .

* * *

وكان مساء . وكان صباح .

فقصدت شاطىء البحر حيث الصخرة المصلّبة . فرأيت سرباً من طيور البحر يتشمّسن عليها . وأشجاراً مقبّبةً تتمايل عن جانبيها . وبساطاً من الأزهار الفوّاحة يتماوج عند قدميها . وما دنوت منها حتى سمعتها تقول :

« ما أثقل الحياة ! فصول تتعاقب . وأجيال تتزاحم . والسماء هي هي . والأرض هي هي . إنها لحياة ضوضاء وشقاء . لا يعلق بها إلا الضعفاء والبُلْه . فالفناء ولا هذا البقاء . ألا فابتلعيني أيتها اللُّجَّة ! »

وما أتمّت الصخرة المصلّبة كلامها حتى هبط عليها من

الفضاء الأعلى نيزك كبير فطحنها طحناً ، مبدداً ذرّاتها في الهواء . ولما استقرّ به المقام التفت إلى ما حواليه وقال :

« وطنٌ جديد . وعمرٌ جديد . ألا سبحانها حياةً لا تطرحني بيد إلاّ لتتلقّفني بالأخرى . فأنا في قبضتها أينما هويت . وكيفما التويت . وسأظلّ في قبضتها الواسعة إلى أن تصبح في قبضتي التي لا تُحدّ . »

بعبع الأدب

في ما يدعونه « الفوضى الأدبية »

سقياً لعهد كنّا فيه صغاراً وكان لنا ربّان لا يُقهران : رب رؤوف رحيم . يحب الصغار ويباركهم بالجوز واللوز ، والزبيب والتين وكل أصناف الفاكهة والحلوى إن هم أطاعوا في كل أمر مشيئة كبارهم . وربّ كنود كؤود . واقف لهم أبداً بالمرصاد . حتّى إذا ما عصوا يوماً أمر جدة أو والدة ، أو خالة أو عمّة ، قابلهم بأنياب محدّدة وأظافر مسنّنة ، ليمزقهم إرباً إرباً ، فيأكل لحومهم ويشرب دماءهم .

أما ذانك الربّان فهما الله في السماء و « البعبع » على الأرض .

لقد فات ذلك العهد ومات . فأصبح صغاره كباراً . غير أن « بعبعه » لم يمت بل تقمصت روحه في « بعابع » جديدة عديدة . منها بعبع الدين — وهو جهنم النار . وبعبع الشرائع المدنية — وهو وصمة العار والهوان التي تهدّد بها البشرية أبناءها الخارجين على شرائعها . ثم بعبع الترتيبات السياسيّة والاجتماعيّة والأدبية بأنواعها — واسمه « الفوضى » .

وقد خطر ببالي – لكثرة ما أسمعه في هذه الأيام عن « الفوضى الأدبيّة » – أن أدخل وجار هذا البعبع الرهيب . فإمّا يبطش بي وإمّا أبطش به . ولست في ما أنا فاعل مدّعياً بسالة الخضر في حربه مع التنين ولا هيبة دانيال في جب الأسود .

ما هي الفوضى ؟

يقال « الأمر فوضى » إذا لم يكن على شيء من النظام .

إذن ما هو النظام الذي إذا فُقد حلّ محله ذلك الشبح المخيف الذي ندعوه « فوضى » ؟

في الكون نظام واحد . هو النظام الذي قيّد به الخالق خليقته والذي نستدلّ عليه بمظاهره ونقصر دون إدراك كنهه . به تدور الأجرام السماوية أقصاها وأدناها . وأكبرها وأصغرها. فلا يتعدى واحد منها سبيله ولا يغير وجهته ، أو يعكس حركته.

هو النظام الذي جعل من الموت حياة ، ومن الحياة موتاً ، كيما يجدد الكون ذاته بذاته بلا انقطاع .

هو النظام الذي يتناول كل ما في الوجود من منظور وغير منظور فلا تفلت منه ذرّة رمل كما لا يفلت جبل . ويمتثل له الأوقيانوس امتثال قطرة الماء ، والجمل امتثال البعوضة . هو النظام القابض على الكون وكل ما في الكون جاعلاً منه سلسلة علل ونتائج لا بداية لها ولا نهاية . وما الإنسان المتمرد بفكره ،

المتشامخ بادعائه ، سوى حلقة في تلك السلسلة مقيدة بما يسبقها وما يتلوها من الحلقات .

مثل هذا النظام لا يحتمل الخلل . فإذا اختلّ بعضه تفكك كلّه وحينئذ جاز لنا أن ندعو اختلاله « فوضى » . هي الفوضى إذا زرعت بلوطة فنبتت وردة . أو قمحة فنبتت أرزة . أو رميت حجراً إلى فوق فلم يهبط إلى أسفل بل ظلّ ذاهباً صعوداً في الفضاء . أو إذا باضت الدجاجة فيلاً . والأفعى نسراً . أو إذا طلعت الشمس من المغرب وغاب القمر في المشرق . إذ ذاك يكون الكون قد أفلت من قيود نظامه فأصبح فوضى يُخشى عليه معها من التلاشي .

في الكون نظام واحد ثابت لا يتغير ولا يتبدّل . ومن ميزات ثباته أنّه يتمّم نفسه بنفسه . فهو الحاكم والمحكمة والمحكّمون . وهو يصدر الحكم في الحال وينفذه في الحال ضد كل من حاد عنه ولو قيد شعرة . وهذا النظام يشمل كل ما في الكون من الأنظمة . ومنها الشرائع البشرية . فهي ضمنه لا خارجة عنه ، تتكيّف به ولا يتكيّف بها .

لو كان للأنظمة البشرية ما للنظام السرمدي من الثبات وكان لها أن تنفّذ ذاتها بذاتها لصحّ لنا أن ندعو اختلالها أو فقدانها فوضى . أما وهي خاضعة للنظام الشامل فكل ما يطرأ عليها من التبديل والتحوير ليس إلا امتثالاً لذلك النظام — لا

أكثر ولا أقلّ .

أتهيج العاصفة من تلقائها ، أم امتثالاً لنظام طبيعي يجعل من النسيم ريحاً هاصرة ؟ وليت شعري لو جعلنا للأشجار في الغاب أرواحاً وأعطيناها ألسنةً فخطّت لذواتها نظاماً وقطعت على ذواتها ميثاقاً بأن تعيش في سكينة وسلام أما كانت تدعو العاصفة فوضى ؟

ولو دخلنا جوف الأرض وأعطينا ما هناك من الدفائن أرواحاً وألسنة أما تراها كانت تحسب هياج البركان فوضى ؟ غير أن العاصفة والبركان لا يخرجان عن النظام الشامل . بل هما ضمنه .

أمّا بلاء الناس ففي اعتقادهم أنهم فوق النظام الشامل . وأن الكون رهن أنظمتهم لا هم رهن نظامه . لذلك يسنّون الشرائع واهمين أنها أثبت من الشمس والقمر . وإذ تهبّ عليها عاصفة منهم وفيهم يصيحون في الحال بأعلى أصواتهم : « الفوضى . الفوضى » ناسين أن ما يدعونه « فوضى » ليس إلا مظهراً من مظاهر نظام ينفّذ ذاته فيهم وهم غافلون عنه أو متغافلون .

ليس من شريعة بشريّة إلاّ تداس في اليوم القصير ألوف المرّات من ألوف الرجال والنساء . إن لم يكن علانية فسرّاً . أو بالفعل فبالفكر . ولا يعاقب منهم أحد إلاّ الذين يقعون

في أشراك الشرطة — وما أقلّهم !

من يشرب السم يمت طبقاً لنظام الحياة والموت . لأنّه يعاند ذلك النظام الذي لا يعرف معانداً . أما من يدوس الشريعة البشرية فيسرق رغيفاً ، فالشريعة من تلقاء نفسها لا تجعل ذلك الرغيف في فمه حجراً . ولا تقطع يده ولا تفقأ عينه لأنّه بسرقته الرغيف لم يعاند النظام السرمدي ، بل خرق نظاماً اصطلاحيّاً لا جوهر له من نفسه ، ولا له أُسُسٌ يقوم عليها سوى المصلحة البشرية الوقتيّة التي قد تكون اليوم غير ما كانت أمس . وغداً غيرها اليوم .

ألا إن الناس يتستّرون بظلّ أصابعهم ، ويسيرون كلٌّ في سبيله قانعين ، مؤمنين أن السياج الذي أقاموه حولهم من الشرائع لا يترك منفذاً لمتمرّد ، ولا مهرباً لعاصٍ . وقد فاتهم أن أعصى العصاة والمتمرّدين هو الفكر الذي لا يحصره سياج ، ولا تقيّده شريعة ، ولا تغله أغلال .

فمَن ذا من الناس تمكن يوماً من أن يقيّد فكره بوثاق فيحدّد مجراه ، ويكبح هواه ، ويدرّب خطاه ؟

إن هذا الفكر الذي لا يتقيّد بنظام سوى النظام الأكمل الأعلى هو مهبّ الرّياح التي تعصف بين الآونة والأخرى بأوضاع الناس وتقاليدهم وشرائعهم فتزعزعها وتقوضها . وكثيراً ما تقلبها رأساً على عقب ، فيحسب الناس مثل هذه

العواصف ملمّة ، ويدعون ما تحدثه من التغيير والتبديل « فوضى » . لأن من طبيعة البشر الاستمرار على عادة أو طقس أو شريعة . إذ ليس في الاستمرار من عناء يُذكر . فمن يجذّف مع الموج ليس كمن يجذّف ضده .

وأبغض شيء عند الناس هو تغيير عادة ألفوها . أو طقس تملّك من حياتهم فأصبح جزءاً منها . لذلك تراهم يغارون على عاداتهم وطقوسهم غيرة الأمّ على ابنها فيحوكون لها من القداسة أثواباً ، ويُحلّونها محل الملهمات ، كما لو كانت من وضع خالق السموات والأرض . فيدافعون عنها بكلّ قواهم ، ويقيمون عليها حرّاساً من الأوهام يرعبون بها كل من تسوّل له نفسه الخروج عليها والكفر بها .

لقد ورث أبناء العربيّة عن أسلافهم آثاراً أدبيّة في كثير منها جمال رائع . ففتنهم ذلك الجمال . وأعجبتهم القوالب التي صيغ فيها . فأمعنوا في درسها . وألِفوها حتى أصبحت عندهم كما لو أنها منزلة . وكيّفوا كلّ شعورهم وأفكارهم بها إلى أن لم يعد في وسعهم إبداء فكر أو إبراز عاطفة إلاّ بتلك القوالب . لا بل إنهم ألفوا أفكار أسلافهم وعواطفهم إلى درجة اندمجت معها أفكارهم وعواطفهم بأفكار أسلافهم وعواطفهم. وهناك استقرّوا قانعين بما أدركوه من البيان ، داعين ما بلغوه منه أدباً . فسيّجوا هذا الأدب بسياجات من القوانين والشرائع .

وآمنوا من كل قلوبهم أن سياجاتهم هي من صنع الإله القدير ، لا يقوى على اختراقها إنس ولا جن .

لكنها الأيّام ما كانت إلا لتخيب ظنّهم ، كما خيّبت ظنون الكثيرين من قبلهم . إذ أفاقوا يوماً فوجدوا بين ظهرانيهم قوماً من لحمهم ودمهم ، لكنّما عليهم مسحة غريبة . فكلّموهم وإذا بهم يبدون أفكاراً غريبة في أساليب لم تقدسها طقوسهم الأدبيّة وأنظمتهم البيانيّة فصاحوا من ذعرهم : « الفوضى . الفوضى ! »

لقد أصبحت الفوضى « بعبعهم » الأكبر . يروّعون بها كل من ينظم الشعر في غير القوالب التي ينظمون . وكل من يبدي من الأفكار والعواطف غير ما يبدون . ولو فكروا لفقهوا أن ما يدعونه « فوضى » ليس إلا نتيجة لازمة لعلل كثيرة سبقتها . وأنّه مظهر من مظاهر النظام السرمدي الشامل . وأنّه ، وإن يكن خروجاً على أنظمتهم ، ليس خروجاً على ذلك النظام الذي لا متمرّد عليه ، ولا عاصٍ .

أفلا كفوا أنفسهم عناء الولولة والهمّ بما سيحلّ بهم وبلغتهم وأراحوا الأدب ولو قليلاً من « بعبع » فوضاهم ؟

ما عرفتُ لغة ولا سمعت بأمّة قط قضت عليهما الفوضى . بيد أني أعرف لغات تفكّكت أواصرها ، وأسمع بأمم طمست آثارها ، وأدركتها سكتة الموت عندما تحوّل دم الحياة في

عروقها ماء . فانحلت أعصابها ، وانفرطت أجزاؤها انفراط عقد قُطع سلكه . أما ما ندعوه فوضى فبدلاً من أن يكون نذير الانحلال ، فهو في نظري بشير الحياة . إذ لا انفجار إلاّ حيث مواد متفجّرة. ولا عاصفة إلاّ حيث هواء . ولا سيل إلاّ حيث سحب وماء . ولا ثورة إلاّ حيث قلوب تنبض . وعقول تفكّر . وعضلات تتكمّش . وأرواح تئن أو تحن . أمّا حيث لا أثر لذلك فلا أثر للحياة ولا خوف من «الفوضى».

لئن تشعّبت اليوم مسالكنا الأدبيّة ، وتنوّعت أساليبنا البيانيّة ، وكثرت هفواتنا اللغويّة ، فلنغبط أنفسنا قائلين : «نحمد الله فإن آدابنا لا تزال فيها قوى تبحث عن مسالك ، وتستنبط أساليب وقوالب . وما هفواتها إلاّ بشير لنا بأنّنا لم نبلغ بعد الكمال الذي بعده انحلال . بل نحن سائرون في سبيل الكمال الذي لا محجات فيه ولا مراحل . »

إن يكن اليوم في حالتنا الأدبيّة ما يدعو إلى التخوّف والتشاؤم فذلك ليس أن الحال «فوضى» بل إن هذه الفوضى ليست من المجال والمدى في أبعد ممّا ظهرت فيه حتّى الآن . فهي لم تأتنا بعد بجبابرة . ولم تنهج مناهج واسعة . ولم تشد صروحاً عالية . فإذا وقفَتْ قريباً عند هذا الحدّ خشينا أن يجد القنوط إلى قلوبنا منفذاً . إذ تخيب لنا آمال ما برحت تجول في الصدور بأن في عمق أعماق كياننا الأدبي قوى لا تزال

هاجعة هجوع الحبة في التّراب ، والربيع تحت الثلج . ومتى جاء وقت الربيع ولم تنبت الأرض بنفسجاً ووردأ وزنبقاً عرفنا أن ليس في رحمها بنفسج وزنبق وورد . بل أشواك وأحساك .

الربيع في الطبيعة هو « فوضى » الطبيعة . وأرانا اليوم في ربيع جديد من حولنا الأدبي . والغريب هو أنّنا ندعو هذا الربيع « فوضى » ونتعوذ منه بالشيطان . ونودّ لو كان في إمكاننا إرجاع رياحينه إلى الأرض التي تنفست بها .

فيا للعجب ! ويا للأسف !

حبتان من القمح

قالت حبة قمح في التراب لجارتها :

« ما هذا الذي أنا فيه يا جارتي ، وقطّ ما شعرت بمثله في حياتي ؟ في قلبي خفقان . وفي أحشائي قشعريرة . وفي رأسي دوار . وفي صدري اختناق . حتى كأن جلدي قد ضاق بي . وكأن هذا المسكن الرحب الذي ضمنا دهوراً قد أصبح الآن ثقب إبرة . ها أنا أكلمك ولا أكاد أسمع وأعي ما أقول . أترين أن هذا ما يسمّونه الموت ؟ أترين أن بعد الدهور السعيدة التي قضيناها سوية ستأتي ساعة أطلبك فيها فلا أجدك . وتطلبينني فلا تجدينني ؟ لله ما كان أدفأ بيتنا وآنسه وآمنه . وهذه الجذور المشبّكة فيه ما كان أجملها وأحنّها . وهذه الينابيع المتدفّقة من كل جوانبه ما كان أسخاها وأعذبها . أوّاه يا جارتي . أوّاه . . . »

وارتعشت الحبّة المتكلمة وانقطع صوتها . فالتفتت إليها جارتها وإذا بجلدها قد تكمّش ، ثم انشقّ وبرزت منه نبتة صغيرة بيضاء – خضراء . فنادتها مرةً وثانية وثالثة . وإذ لم تسمع جواباً أيقنت أن لا جارة لها بعد . فبكت بكاء مرّاً .

وكانت شمس آذار تهمس بشرى في أذن النسيم . والأرض تستعدّ لاستقبال مولودة جديدة .

* * *

وكان وقت الحصاد . فقالت سنبلة لجارتها :

« لقد سمعت في هذا الصباح يا جارتي رنّة منجل الحاصد . وقد أخبرني الغير أن هذه الرنّة تنذر بالنهاية ، نهاية كل شيء حتى المحبّة التي ربطتنا مذ كنّا وُريقتين لاصقتين بالتّراب . »

فأجابت السنبلة الثانية :

« لكلّ بداية نهاية . لكن ما لا بداية له لا نهاية له . ومحبتنا منه . فهي لم تبدأ حين كنّا وُريقتين لاصقتين بالتّراب . وكم قلت لك قبل الآن إن في وجداني ما يدلني على أني عرفتك دهوراً لا تُدرَك قبل أن رأيتك بجانبي في هذا الحقل . »

فردّت السنبلة الأولى :

« لله ما أكثر أوهامك يا حبيبتي . صدقيني إنّه لولا شغفي بك الجارف لسددت أذنيّ عنك وعن كلّ سخافة تصوراتك . لنفرض أنّنا — كما تزعمين — كنّا في سالف الزمان حبتين متحابتين . فها نحن الآن سنبلتان . والواحدة منا تحمل عشرين حبّة . »

فأجابت السنبلة الثانية وقالت :

« ليست العشرون حبة إلاّ حبة واحدة . ما السرّ في العدد

يا حبيبتي . السرّ في الحبّة . »

وهوت السنبلتان إلى الأرض بضربة واحدة من منجل الحاصد . ومشى النسيم بين سنابل الحقل ، قائمها ومطروحها ، وهو يردّد :

« السرّ في الحبّة ، السرّ في الحبّة ! »

عظة الغراب

علّمتني جدّتي في صغري أن أكره الغراب . أولاً لسواده الشبيه بالحداد . وثانياً لتنعابه المنذر بالبين . وثالثاً لأنّه خان سيدنا نوحاً – عليه السلام – يوم أطلقه من الفُلك ليأتيه بخبر عن الطوفان فلم يرجع .

غير أني ما كرهت الغراب لسواده وتنعابه وخيانته قدر ما كرهته لأنّه – على زعم جدتي رحمها الله – شاء يوماً أن يقلد الحجل في مشيته فلم يحسن التقليد ونسي مشيته . فأصبح من ذلك اليوم يمشي بين جمز ونقل .

ما برح كرهي للغراب ينمو مع السنين إلى أن جمعتني ظروف غريبة بشيخ فلاسفة الغربان . وكان ذلك في يوم صيف تسعرت أنفاسه . فخرجت فيه إلى البرّيّة أقصد بلوطة قديمة أعرفها لأقيل في ظلّها . وما ان التصق جسمي بجسم الأرض وأحسست بلهاثها المنعش يتمشى في مفاصلي الذاوية حتى دخلت الطمأنينة قلبي فاحتلته . واخترقت هيبةُ السكينة معاقل فكري فاستسلم لها . فكنت كالطفل في حضن أمّه تهدهده فتنقله بتهاويدها من عالم إلى عالم .

وأنا كذلك وإذا بصوت يرنّ في أذني . صوت عرفته أذناي من زمان فكرهتاه : قاق . قاق . قاق . — فأجفلت كالملذوع .

التفتّ إلى فوق وإذا بغراب جاثم على جذع من جذوع بلوطتي يرمقني بعين واحدة ، فصحت والغيظ يمزقني كلّ ممزَّق :

« خسئت من بين كل الطيور ! أوَما كفاك أن عكّرت عليّ صفاء قيلولتي حتى أراك تضحك مني كذلك ؟ وماذا الذي يضحككك ؟ »

فقال وكل ريشة فيه تنتفض من القهقهة :

« اعذرني ، اعذرني ، فإني لا أملك نفسي عن الضحك كلما رأيت إنساناً . لأنكم ، معشر الناس ، أغرب ما في الكون وأدعى إلى الضحك من كل ما فيه ؛ اعذرني ! »

قلت : « أراك تؤنّبني بحسن لباقة . وتضحك مني ضحكة فيلسوف من أبله . ولو عرفت كلّ ما في قلبي نحوك من الكره وما في فكري لك من الاحتقار ، لما أمنت على نفسك أن تبقى على قيد باع مني . فأنت أسود بلون الحداد ، وأنت المنذر بالبين ، وأنت أخون الخائنين ، وأول المقلّدين ؛ وأنا أكره الخائنين ، وأكثر منهم أكره المقلّدين . فاغرب عني ! »

عند ذاك انقطع الغراب عن الضحك ، وعاد إلى وجهه

الجيدّ ، ونظر إليّ بعينيه الاثنتين ، ثم نعب ثلاثاً . وإذا بغيمة سوداء تحجب وجه الشمس ، وإذا بالغيمة سرب من الغربان لا يُعَدّ . وما هي إلاّ لحظة حتى هبطت تلك الغربان عليّ ومناقيرها مفتوحة ، ومخالبها محدّدة مسلولة . وكان أول من انقض عليّ الغراب الجاثم في البلوطة فوق رأسي . فأعمل منقاره في عيني . وعلى الأثر نشبت مناقير ومخالب كثيرة في لحمي ، فارتميت على الأرض بلا حراك .

عند ذاك وقف الغراب الفيلسوف على صدري ، واصطف الآخرون من حولي في شكل نصف دائرة ، وفتح الفيلسوف منقاره وكلّمهم هكذا :

« هوذا الإنسان !

هوذا الكون الذي تلتقي فيه سائر الأكوان .

هوذا الجبار الذي يتعثّر بخيال جبروته ، والملك الذي يذعره اتّساع ملكوته .

هوذا الضرير الحامل النور في يمناه ، والمبصر الحامل الظلمة في يسراه .

هوذا المغفّل الذي يهرب من نفسه إلى رمسه . ثم يبحث في رمسه عن نفسه .

هوذا الإله المنقسم على ذاته والضائع بين ما خلقه من الآلهة .

هوذا قطب الآزال والآباد الذي جعل لآزاله بداية ،

ولآباده نهاية .

هوذا القائل : « أنا » — و — « العالم » .

* * *

« إني محدثكم عن هذا الإله الذي خلق من نفسه عدوّاً لنفسه فأوجد حرباً حيث لم يكن إلا سلام ، وشقاء حيث لم يكن إلاّ غبطة . وإليكم الخبر :

في البدء الذي لا بدء له كانت « أنا » وكان « العالم » . وكان « العالم » « أنا » . وكانت « أنا » « العالم » ، وكان الاثنان واحداً لا ينفصل ولا يتجزأ . وكان الواحد جميلاً وكاملاً .

وفي فجر الزمان الأول وُلد للعالم وَلد ، ودعي الولد « إنساناً » . وكان الإنسان جميلاً وكاملاً ، وكان واحداً مع العالم ، إلى أن سأله العالم مرّة : « من أنت ؟ »

فأجاب : « أنا — أنا . »

فسأله العالم : « ومن أنا ؟ »

فقال : « أنت العالم . »

حينئذ خلق الإنسان الشقاء ، لأنّه شطر نفسه شطرين ، فدعا الواحد « أنا » ودعا الآخر « العالم » . ومن ذلك الحين راح يقيم الفواصل بين ما ليس ينفصل — بين « أنا » وبين « العالم » . ولأن شطري نفسه لا ينفصلان فهما أبداً يدمّران ما يقيمه بينهما من الفواصل ، وهو أبداً يقيمها من جديد . وهكذا

تتنقّل فواصله من هنا إلى هناك إلى هنالك تنقّل الظلّ . وهو يحاول اللحاق بها ، والقبض عليها . وهل أشقى ممّن يحاول القبض على الظلّ ليلبسه وشاحاً ؟

عندما قال الإنسان : « أنا — و — العالم » فكأنّه قال لكل ما في الفضاء وما وراء الفضاء من شموس وأقمار ونجوم ، من عوالم منظورة وغير منظورة ، ولكل ما في الأرض وتحتها وعليها : أنا غير أنتم ، وأنتم غير أنا ، فلا أنا منكم بشيء ، ولا أنتم مني بشيء .

ولعمري أنّى لمن يعيش على الأرض ومن الأرض ومع الأرض أن يقول : « أنا — و — الأرض » ؟ أوَليس هو الأرض والأرض هو ؟

كيف له أن يقول لدودة تدبّ على الأرض : لستِ مني ولا أنا منك . وهي شريكته في كل الأرض والسماء . في التراب وما يولده التراب ، وفي البحر وما يهبه البحر ، وفي الهواء وما يحمله الهواء ، وفي حرارة الشمس ، ونور القمر ، وشعاع النجوم ؟ أوَليس أن القوة التي تحييه تحييها ؟ أوَليس أن حياتها تتصل بأطراف كل حياة ؟ وإذ أن أطراف الحياة تمتدّ إلى الأزل والأبد ، والإنسان ضمن الحياة ، فكيف له أن يقول للدودة : « لستُ منك ولا أنت مني بشيء » ؟

كيف له أن يقيم فاصلاً بينه وبين الجبال والبحور ،

والأسماك والطيور ، والبذور والأشجار ، والأعشاب والأثمار ، والدبابات والحشرات ، والناس والحيوانات ؟ بين ما يبصره وما لا يبصره وكلّها شريكه في حياته ؟ ما يأخذه منها إنما يأخذه من نفسه ، وما تأخذه منه إنّما تأخذه من نفسها . وفي الحالتين هو العالم الأكبر يأخذ من نفسه ويعطي نفسه . لذلك لا يأخذ شيئاً ولا يعطي شيئاً . كما أن البحر لا يعطي الجبال شيئاً عندما يصعد إلى رؤوسها لينحدر من هناك جداول وسواقي وأنهاراً ، ولا يأخذ منها شيئاً عندما يسترجع تلك الجداول والسواقي والأنهار إلى صدره الواسع العميق . فهو المعطي والآخذ في الحالتين . وهو هو في كلّ حال .

أمّا الإنسان فعندما يأخذُ شطرُه الذي يدعوه « أنا » من شطره الذي يدعوه « العالم » لا يقول : قد أخذتُ نفسي من نفسي ، بل يقول : لقد غلبتُ العالم وسلبته خيراته . وعندما يأخذ « العالم » من « أنا » لا يقول الإنسان : لقد أعطيت نفسي من نفسي ، بل يقول : لقد سلبني العالم حقّي .

أجل ، عندما قال الإنسان : « أنا ــ و ــ العالم » عندئذ خلق من نفسه ضدّاً لنفسه . وإذ خلق لنفسه ضدّاً خلق ضدّاً لكل شيء . وأصبح ينظر إلى كل شيء بعينين : عين يرى بها « أنا » ، وأخرى يرى بها « غير أنا » . وهكذا ازدوجت الأشياء في نظره وهي واحدة . فأضحى لا يبصر شيئاً إلاّ أبصر

معه في الحال نقيضه . ولأن النقيض يمحو نقيضه ، فالإنسان لا يبصر في الواقع إلاّ خيالات أوهامه .

هكذا جزّأ الإنسان نفسه التي لا تتجزّأ ، وبعثرها في كلّ أنحاء الكون .

وهكذا يسير هذا الإنسان المبصر – الأعمى متلمساً سبيله في الكون ، وملتقطاً عن جوانب السبيل ذرّات نفسه المبعثرة . غير أنّه لا يلتقط ذرة من « أنا » إلا التقط معها ذرة من شطرها الثاني الذي يدعوه « العالم » أو « غير أنا » . وكلّما التقط ذرة قال في نفسه : سأحتفظ بما في هذه الذرة من « أنا » وأطرح ما « ليس أنا » . وإذ يحاول ذلك يجد أنّه قد طرح « أنا » مع ما « ليس أنا » . لأن الاثنين لا يفترقان . فيتألم ويعود يلتقط ذراته من جديد .

هكذا يلتقط الإنسان العافية ومعها المرض .

والحبّ ومعه البغض .

والإيمان ومعه الإلحاد .

والقوّة ومعها الضعف .

والراحة ومعها التعب .

والوفرة ومعها القلة .

والفرح ومعه الحزن .

والطمأنينة ومعها الخوف .

والأمل ومعه اليأس .
والمعرفة ومعها الجهل .
والنور ومعه الظلمة .
والصدق ومعه الكذب .
والجمال ومعه الشناعة .
والثقة ومعها الشكّ .
واللابداية ومعها البداية .
واللانهاية ومعها النهاية .

والحياة ومعها الموت ، وهلمّ جرّاً . وبعد أن يطرح من كل ذلك ما يدعوه « غير أنا » يفتح يده وإذا بها أفرغ من الفراغ . فيشقى وأيّ شقاء شقاؤه ! أوَما سمعتموه يتكلّم عن جهنّم النار ؟ تلك هي جهنم النار ؛ وهو موقدها ، وهو وقيدها.

ولأنّه يشقى تراه لم يدع حيلة للتخلّص من شقائه إلا لجأ إليها ، وآخر حيلة هي حيلة « الخير والشر » ، فقد جلس بعد أن مرت به دهور من العذاب طويلة ، وقال في نفسه :

« لقد اهتديت ! لقد اهتديت ! فسأخلص من جهنم النار إذا أنا ابتعدت عن الشر ولم أطلب سوى الخير . »

فرتّب الإنسان لنفسه لائحة بالخير والشر. لكنه ما عتّم أن رآه في حاجة إلى تعديلها إذ وجد أن كثيراً ممّا دعاه شرّاً كان خيراً . وخيراً كان شرّاً . وإذ عدّل لائحة الخير والشرّ مرة

اضطرّ إلى تعديلها ثانية وثالثة . وهو يعدلها اليوم . وسيبقى يعدلها إلى أن يدرك أنّه يستحيل عليه الحصول على الخير دون الشرّ . أو نبذ الشرّ دون الخير . لأن شرّه ليس إلا خير شطر نفسه الثاني . وخيره ليس إلاّ شرّ ذاك الشطر .

ومتى اتحد الشطران توازن شرّهما وخيرهما . فكان لا خيراً ولا شرّاً ، بل كمالاً لا يُحَدّ .

ألا واهاً وألف واهٍ للإنسان كيف يحاول المستحيل . فيقيم من وهمه فاصلاً بين نفسه التي هي العالم ، والعالم الذي هو نفسه . ثم ينظر إلى الغراب الذي هو في العالم ومنه ويقول له : « أنا غير أنت ، وأنت غير أنا . وأنا أكرهك . »

واهاً وألف واهٍ له كيف قنّع بالوهم عينيه حتى إنّه يرى لون الغراب في شعره وشعر من يحبّها جمالاً ، ويراه في ريش الغراب شناعة . ولماذا ؟ لأنّه يذكّره بالحداد . ولعمري ما همّ الحياة من الحداد وهي لا تفرح ولا تحزن ؟ أيحدّ بعض الحياة على بعضها ، وحزن الواحد هو فرح الآخر ، وفرحه حزنه ؟

واهاً وألف واهٍ له لأنّه من خلال قناعه الكثيف قد لمح الجمال . لكنه لمح مع الجمال الشناعة ، ولذلك لم يعرف الجمال ولا الشناعة . إذ كيف لمن عرف الجمال أن يحب لوناً ويكره آخر ؟ بل كيف لمن رأى الجمال أن يبصر لوناً دون آخر ؟ وماذا عسى يبصر الإنسان من الألوان ؟ أيبصر ألوان مشاعره

وأفكاره ؟ أيبصر ألوان أنفاس الأرض والسماء ؟ أيبصر اللون الذي ليس لوناً لأن فيه تلتقي وتندغم كل الألوان ؟ إذن كيف له أن يحدّث عن الجمال ، وجمال العالم التام إنما يتمّ بكل ما في العالم من الألوان ، ولوني ولونكم منها أيها الغربان ؟

أم كيف له أن يحدّث عن الألحان ، وهو ينصت إلى الحياة بأذنين — أذن يسمع بها صوت « أنا » ، وأخرى يسمع بها صوت « العالم » ؟ وماذا عساه يسمع ؟ أيسمع العصير يمشي في جذور هذه البلوطة وجذوعها ؟ أيسمع رقصة الحياة في هذه الحجارة ؟ أيسمع الأرض وكل أجرام السماء دائرة في الفضاء ؟ وإن هو لم يسمع هذه فكيف له أن يسمع صوت العالم الكامل الذي تنسكب فيه كل هذه الأصوات وربوات سواها فيتألف منها لحن الآزال والآباد الكامل ؟

إن صوت الغراب وصوت الإنسان يتمّمان جوقة الطبيعة التامة . إلاّ أن الغراب يعرف ذلك فلا يقول للإنسان : ما أكره صوتك في أذني . ويجهله الإنسان فيقول للغراب : إنّني أكره تنعابك لأنّه ينذر بالبين .

« البين » ! وما همّ العالم الذي لا يعرف انفصالاً ولا اتصالاً بفراق الإنسان ولقائه ؟

ثم يكره الإنسان الغراب لأنّه — في زعمه — خائن ، والخيانة في نظره نقيض الأمانة . وهذان النقيضان ، كسواهما

من المتناقضات ، هما من خليقة وَهْمِ القائل : « أنا — و — العالم » . ولا محلّ لهما في العقل الموحّد ولا لكل ما اخترعه الإنسان من الطقوس والشرائع والأحابيل لحفظ هذه المتناقضات كما لو كانت من جوهر العالم الكامل . وقد عمي الإنسان عن أن العالم الكامل يحفظ نفسه بنفسه . فلا خوف عليه من الدسائس والخيانات .

كذلك يكره هذا الإنسان الغراب لأنّه — في زعمه — مقلّد لا مولّد . ولعمري كيف للغراب أن يقلّد أحداً أو شيئاً وهو لا يفصل بين نفسه وأحد ، ولا بين نفسه وشيء ؟

أما الإنسان الذي فصل بين « أنا » و « العالم » فهو المقلّد لا سواه . لأنّه دائماً يسعى للزيادة في ما يحسبه خير « أنا » ، وللتنقيص ممّا يحسبه شرّاً لها .

ومن الأوهام التي يحسبها الإنسان خيراً — الشهرة . ولعلها أكبر أوهامه . فهناك شهرة القوة ، والسلطان ، والجاه ، والغنى ، والحسب ، والمعرفة ، والفن ، والدهاء السياسي ، والدهاء التجاري ، والدهاء الحربي ، وأنواع عديدة سواها . وما الشهرة هذه بأنواعها المتعدّدة الألوان إلا أن يبني الإنسان بين « أنا » وبين « العالم » أسواراً أرفع من التي بناها جاره . لذاك ترى الناس يقلّدون مشاهيرهم . والذي يفوق في التقليد فهو الشهير الأشهر . أما الذين جاؤوا ليعلّموا الناس كيف

يهدمون الأسوار بين « أنا » و « العالم » ليجدوا شطر نفسهم الضائع ، فهؤلاء رجمهم الناس وصلبوهم . وقلّ بينهم من قلدهم أو يقلدهم إلا بلسانه . مع أنهم هم المولدون . لأنهم أدركوا وحدتهم مع العالم .

أجل . عجبت للإنسان يتهم الغراب وغيره بالتقليد ، وهو أول المقلدين وأكبرهم . فهو في كل ما يقول ، وما يكتب ، وما يرسم ، وما يفعل ، إنّما يرفع الأسوار بين « أنا » وبين ما « ليس أنا » . ولا يكون مولداً إلاّ عندما يدكّ تلك الأسوار . لأنّه إذ ذاك يعمل بمشيئة العالم الكامل الّتي تكوّن مشيئته والّتي لا مولّد إلاّها .

لذلك أقول لكم أيها الغربان إنّكم إذا سمعتم إنساناً يقول « أنا » وعرفتم أنّه يعني بذلك نفسه دون العالم فافقأوا عينيه ، لعله يبصر عالماً واحداً حيث يبصر الآن عالَمين .

أما إذا سمعتم إنساناً يقول « أنا » وعرفتم أنّه يعني نفسه ، والغراب كذلك ، وكل ما في العالم الذي لا بداية له ولا نهاية ، فخرّوا أمامه ساجدين .

ذلك الإنسان — إله . »

* * *

هنا ختم الغراب كلامه . فصفق الغربان بأجنحتهم ثلاثاً . وإذا بهم سرب من حمام، وإذا بسرب الحمام جوقة من ملائكة

يهللون : « المجد للقائل : أنا — هو . هو — أنا » ويصعدون إلى فوق ملاك تلو ملاك . وعندما اختفى آخر ملاك عن بصري سمعت صوتاً هاتفاً : « قاق . قاق . قاق » تحركت عيني وإذا بي مستلقٍ تحت بلوطتي ، والعرق يتصبب مني . وفوق رأسي غراب جاثم على جذع من جذوع البلوطة .

وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب ، فنهضت أقصد بيتي . وما خطوت خطوة حتى بسط الغراب جناحيه وامتطى الهواء ، فودعته بنظرة . وودعني بكلمات ثلاث :

« قاق . قاق . قاق . »

ولأول مرّة في حياتي فهمت ما قاله الغراب .

المراحل

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
الأوثان
كرم على درب
لقاء
صوت العالم
كتاب مرداد
مذكرات الأرقش
ومضات (شذور وأمثال)
النور والديجور

في مهب الريح
دروب
النبي
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون ١/٣
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
نجوى الغروب
من وحي المسيح
أحاديث مع الصحافة
رسائل

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories.

NINTH EDITION

1989

Naufal Bldg; Mamary St;
Tel: 354391, 354898; Tlx: Naustn 22210 LE
P.O.Box: 11-2161, Beirut, Lebanon